إنهما ناصران

الصديقة الكاملة خديجة

عم النبي أبو طالب

فوزي آل سيف

إنهما ناصران

❁ الصديقة الكاملة خديجة

❁ عم النبي أبو طالب

فوزي آل سيف

الطبعة الأولى
١٤٤٢-٢٠٢١

خط الغلاف:
الخطاط سيد حيدر العلوي
الخطاط علي المادح


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي القارئ

هذه الصفحات تتناول شيئا من سيرة وأحوال نصيرين للنبي حين عز النصير، ومؤمنين به حين كان الإيمان به يساوي التعرض للأذى والاضطهاد بل للموت، ونصرتهما بهذا تختلف عما صار فيما بعد من حال بعض المسلمين وهم «**في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون**».

جمعهما الدور الرسالي في الفترة التي تجاوزت فترة ما بعد الهجرة زمانا وخطورة. فاشتركا في تلك الفترة وأخطارها، وتأسست قواعد الدين على يدهما، بعد النبي والوصي.

خديجة بنت خويلد وأبو طالب عليهما السلام، احتضنا بذرة الرسالة في فترة البعثة واستمرا فيها مدافعين منافحين حاميين مدة عشر سنوات ولذلك لا غرابة أن سُمّي العام الذي فقد فيه النبي زوجته وعمه بعام الحزن.

اقترح بعض الأحبة والفضلاء أن يتم إفراد كل من النصيرين بكتاب عن حياته، فيما رأى آخرون ووافق في نفسي رغبة أن يكون كتاب واحد لهما، لجهات متعددة منها: وحدة الزمان والدور الذي عاشا فيه وقاما به، وهذا يجعل السيرة التاريخية لهما قريبة جدا فكأنك تقرأ قصة واحدة ذات مشاهد متعددة، كل مشهد يكمل

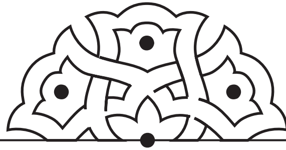
الآخر. وكذلك قرب المناسبة التاريخية للاحتفاء بهما فقد جرت العادة عند شيعة أهل البيت في منطقة الخليج وما حولها أن يذكرا في العشرة الأولى من شهر رمضان المبارك في كل سنة، فأحببنا أن نقدم هذا الكتيب جامعا لشيء من سيرتهما الرسالية الكريمة، وأن يتم قراءته وتداوله في مناسبة ترتبط بهما عليهما السلام.

سيلاحظ القارئ العزيز أن الكتاب سيتناول أولًا سيرة الصدّيقة الكاملة خديجة بنت خويلد، وبعد الانتهاء منها سيتناول سيرة وجهاد أبي طالب عم النبي عليهما السلام.

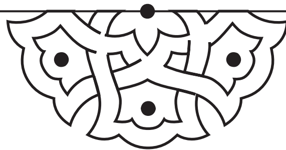
لا يفوتني أن ألفت النظر إلى أنه تبعا لوحدة المرحلة التاريخية والدور المشترك لهما في حماية الرسالة قد يلاحظ القارئ الكريم والقارئة الفاضلة أن بعض الحوادث قد تذكر هنا وهناك، أي في القسم المخصص للسيدة الطاهرة خديجة وللعم المحامي أبي طالب، وهذا راجع إلى ما ذكرنا من جهة ولكون هذه المقالات قد كتبت أو ألقيت في فترات مختلفة.

كذلك لا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في بروز هذا الكتاب إلى النور، بأي نحو من الأنحاء وأسأل الله أن يكرمهم وإياي بشفاعة هذين العظيمين في يوم القيامة.

فوزي بن المرحوم محمد تقي آل سيف
تاروت القطيف
٢٥/ ٥/ ١٤٤٢ هـ



خديجة بنت خويلد
الصديقة الكاملة



مقدمة

أكرم الله الإنسان بالإسلام، وجعله محلاً لخطابه عز وجل وعهد إليه أعظم مهمة يعهدها لمخلوق فشرفه بمعرفته ثم العبادة وجعل هدف خلقته مقصوراً عليها فقال ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[1]، وكلفه بعد ذلك بعمارة الأرض واصلاحها[2]، بعد أن سخرها له[3] وخلق ما فيها من أجله[4] ليربح فيها.

كل ذلك جعل الإنسان محل كرامة الله وتفضيله على من عداه من خلقه[5]، فصار آدم أصل البشر قبلة سجود الملائكة.

ذلك التكريم لم يكن خاصاً بصنف معين من نوع الإنسان وإنما كان لصنفيه: ذكره وأنثاه، بشرط الالتزام بالسعي نحو الهدف

---

(١) سورة الذاريات آية:٥٦

(٢) ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ سورة هود آية ٦١.

(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ سورة الحج آية ٦٥.

(٤) ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ سورة البقرة آية ٢٩.

(٥) ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ سورة الإسراء آية ٧٠.

الذي خلق له هذا الإنسان والعمل الصالح للوصول إليه، ذلك أنه ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[1].

المشكلة التي حدثت هي الفهم الخاطئ لطبيعة الرسالة السماوية، ذلك الفهم الخاطئ الذي عطّل فكر الرسالة عن الفاعلية في المجتمع وعن تحريك المنتمين إليها، بل سبّب في حالات كثيرة الانفضاض عن تعاليمها وآفاقها الرحبة.

من حصيلة ذلك الفهم الخاطئ، وأحياناً عدم الفهم، أننا وجدنا من يعيد تدوير ثقافة ما قبل الرسالة لتعود في لباس ديني بزعمه، فإذا كانت الرسالة السماوية تدعو إلى التحرير، وجدنا من يدعو إلى العبودية ويلبس تلك الأفكار الجاهلية لَبوس الإسلام، وإذا كانت تدعو إلى المسؤولية والاختيار، وجدنا من يدعو إلى التواكل والجبرية وكل ذاك باسم الدين وآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ، بل وصل الأمر إلى أن تعاد العقائد الجاهلية في موضوع الإيمان بالله في صورة (**إسلامية**).

ومن الفهم الخاطئ بل المعكوس ما يرتبط بالمرأة، فإن قسماً من الناس في زمان نزول الوحي بل وحتى في الوقت الحاضر لم يكونوا قادرين على فهم البصائر الجديدة التي جاء بها القرآن أو مع فهمها لم يكونوا مستعدين لقبولها نفسياً، فكيف يكون الشخص الذي

---

(١) سورة النحل آية ٩٧.

يقاتل ويمنع الحريم، وينفع ويضر مساوياً في المنزلة لمن ﴿**يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾[1].

ولا يزال إلى اليوم هذا (**الشعور الجاهلي**) يربك قسماً غير قليل من المسلمين، وإن كانوا حضريي النشأة.. لا تزال المرأة عندهم (**مشكلة**) دائمة، و(**مصنعاً للعار**). لا يزال الحديث عنها بعبارة (**حاشاك، أعزك الله، الأهل وأنت بكرامة!!**). وهذه الثقافة والحالة النفسية لن تعدم بعض النصوص التي تؤخذ مجتزأة، ومجردة من ظروفها السياسية والاجتماعية، وأحياناً الزمنية لكي تكون هي القاعدة والقانون العام.

أما حديث الآيات التي تتكلم عنهما بصيغة واحدة، وتبين فضل صاحب الفضل بغض النظر عن الجنس فدعك عنها إذ ليست سوى مجاملات!!

لا يزال هؤلاء يعيشون المشكلة فلا هم باقون ضمن الحالة الجاهلية رسمياً، ولا هم قادرون على الانسجام مع ما يريده الإسلام، فتراهم في كثير من الأحيان أكثر (**غيرة**) من الله على الحرمات، وأكثر (**حرصاً**) من التشريع على صيانة الأخلاق!! فالاحتياط عندهم هو الأصل، وهو نظام الحياة مع أنه بهذه السعة التي يتصورونها معيق للحياة الإنسانية.

---

(١) سورة الزخرف:١٨.

في المقابل نحن نجد أن الإسلام قد أعز المرأة باعتبارها أحد أفراد النوع الإنساني الذي قد فضله الله وأكرمه بمقدار طاعته والتزامه، وأكرمها بالخصوص فهي تارة (**حسنة**) يثاب عليها والدها، وأخرى «**ريحانة أشمها ورزقها على الله (و) ليست بقهرمانة**» للخدمة أو الأعمال الشاقة، بل كان «**من أخلاق الأنبياء حب النساء**»[١]، و«**كلما ازداد العبد إيماناً ازداد حبًّا للنساء**»[٢].

نعم حين يراد تجاوز هذا الحد من التشريف والمسؤولية فيطلب ما هو أكثر يكون في غير محله، وحين يوكل إليهن ما ليس لهن وما لا ينبغي منهن، ينقلب الأمر على رأسه تماماً كما هو في كل مورد.

مما بينه الإسلام فيما يرتبط بدور المرأة في مجتمعها أمور كثيرة، ولكن نقتصر في هذه المقدمة على بعضها، ولعل في الاستعراض الآتي لحياة المؤمنات ما سيوضح المزيد:

١) **تعليم المرأة**: التعلم والمعرفة بداية الحركة الصحيحة في الحياة، وما جاء دين بما جاء به الإسلام من حث على ذلك، وهذا ظاهر **فما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة** كما يقول أمير

---

(١) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة ج٧، عن الإمام الصادق عليه السلام

(٢) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة ج٧. وقد ذكرنا في كتاب (**الحياة الشخصية عند أهل البيت**) أنه ليس المقصود من هذه الأحاديث الحب الشهواني والمبالغة فيه، فإن ذلك مذموم في أحاديث أخرى حيث جعل أول ما عصي الله تبارك وتعالى به ست خصال: إحداها حب النساء.. بهذا المعنى الشهواني.

المؤمنين عليه السلام. وفي هذه الجهة لا يختلف أمر المرأة عن الرجل، بل ربما كان بالنسبة إلى المرأة تبعاً لما تمثله من موقع تربوي للأولاد، وتأثير مهم في صيانة البيت الزوجي أكثر أهمية.

إن عمومات لزوم التعلم والمعرفة شاملة للمرأة بنفس مقدار شمولها للرجل إلا ما خرج بالدليل فيما يرتبط بتعلم الشؤون الدينية وما يتصل بإدارة حياتها الشخصية والزوجية من أحكام ومعارف، فلا أحد يتوهم أنه ليس على المرأة أن تتعلم أحكام عباداتها بالمقدار الواجب، كما لا يقبل قول أحد في أنه لا ينبغي لها التعلم لغير الأحكام بما يكفل لها حياة أفضل، ويعطيها تجربة أحسن في إدارة بيتها وعلاقاتها الاجتماعية.

٢) **عمل المرأة**: بالرغم من أن الإسلام قد أوكل إلى المرأة أعظم دور في الوجود وهو تنشئة الإنسان، وصياغة شخصيته، وعجينة نفسه في وقت مبكر حيث ينطبع فيها كل شيء، ومن هناك تتقرر الصحة النفسية والمرض، والعقد الداخلية، بل تتكون الجرائم وتغرس في تلك الأيام والسنوات، وتنتج بعد عشرات السنين.

هذا الأمر الذي لا ينتبه له في عالم اليوم، فهم ينشئون المصحات العقلية، والمراكز النفسية وغير ذلك، ولا يستطيعون أن يصلوا إلى نتيجة طيبة، فإن الغرس إذا كان شوكاً فلا ينفع فيه التقليم فيما بعد، فضلا عن تغييره.

أعني بما سبق تربية أطفالها حين تصبح ذات أطفال، وإدارة بيتها الزوجي بنحو طيب.

مع ذلك فقد أعطى الإسلام للمرأة مجالاً للعمل في بناء مجتمعها، وحده بحدود لا تنتهي بها إلى إلغاء خصوصيتها، ولا تسيء إلى كرامتها وشرفها الإنساني، والتزامها الديني.

◄ العالم المعاصر والحصاد المر

تماماً كما هو السراب، ينظر إليه العاطش من بعيد، فيرى فيه الماء الرقراق الذي يتغلغل في كل خلية من خلاياه فيكسبها قوة وارتواء، ويعطيه نشاطاً وحياةً بعدما كان ينتهي إلى التجفاف والموت، ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**﴾[١] وعجيب تعبير القرآن، وكم فيه من أعاجيب، فهو لا يقول أنه وجده شيئاً غير مفيد، بل ليس بشيء أصلاً. هكذا هو مثال القيم الغربية والحياة والنمط الثقافي الذي يدعو إليه المتغربون مجتمعنا الإسلامي.

أو كقوس المطر فيه من الألوان المتراقصة والجميلة ما يخلب الألباب ويشد الأنظار، ويصنع البهجة والإعجاب، حتى إذا غير الناظر زاوية النظر، أو تغير الوقت، وتبدلت جهة انكسار الضوء الشمسي الكاشف، وإذا به ينتهي و﴿**لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**﴾[٢].

الناظرون إلى الحضارة والإنجاز الغربي وهو عظيم حقاً

(١) سورة النور:٣٩

(٢) نفس المصدر السابق.

في مستوى الآلة والتنظيم الظاهري وبائس ومريض إلى النخاع في مستوى القيم والنظام الأخلاقي عادة ما ينبهرون بالسراب ويتصورونه غدير ماء بارد في صحراء الكون الحارقة، لكنهم بعد التأمل وأحياناً بعد التخبط لا يرون شيئاً.

لقد وصل الإنسان الغربي بما أتاحه الله له من إمكانات عقلية سيطر فيها على خامات الطبيعة إلى مدارج من الكمال الظاهري والتقني لم تكن لتخطر على بال أحد، ويتعب المرء لو أراد أن يتابع ما ينتج كل سنة فضلاً عن الأيام، ولا يستغرب أن يأتي يوم يستطيع فيه العالم أن يجري كل شؤونه من خلال الأزرار. لكنه بقي في النظام الأخلاقي بائساً، فدمر نفسه، وأصبحت خطورته أكثر من السابق، فإذا كان المجرم في السابق يستطيع أن يدمر العشرات، فإن تدميره اليوم يعد بعشرات الألوف، وإذا كان المفسد في السابق يستطيع أن يلوث قرية أو مدينة، فإنه اليوم يستطيع أن يقضي على الأخلاق في بلاد بأكملها.. وهكذا (**يداك أوكتا وفوك نفخ**).. لو أردنا أن نتتبع ﴿**الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾[1] والناتج ﴿**بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[2] لطال المقام، لكننا نورد نماذج بما يتصل بوضع الأسرة والمرأة مما هو مرتبط بموضوع الكتاب هذا.. وسوف يتبين لك–أخي القارئ.. أختي القارئة–كيف أن العبودية التي عاشتها المرأة في الزمن القديم، والجاهلية التي تمرغت فيها هي

(١) سورة الروم: ٤١

(٢) سورة الروم: ٤١

بالنسبة إلى ما تعانيه المرأة اليوم في عصر الانحطاط الأخلاقي ستكون جنة الرفاه.

◄ كيف سُحقت الأسرة؟

لا يختلف اثنان في أن قوة المجتمع تابعة لقوة النظام الأسري فيه، ولذا كانت الديانات السماوية وحتى المفكرون الاصلاحيون يصرون على إيجاد أفضل القوانين التي تكفل للمجتمع وجود أسرة صالحة متماسكة والتي بدورها تعيد إنتاج الصلاح والقوة.

النمط الذي يسود اليوم في العالم الغربي، والذي تبشر به قيم الثقافة الغربية أو تنتهي إليه هو ما تكشف عنه الإحصاءات التي ستقرؤها بعد قليل. إننا عندما نتحدث عن هذه النتائج فلا ندين النهاية، ولا نتحدث عن آخر المشوار وإنما نحذر من أن يسلك المجتمع الإسلامي طريقاً هو الذي انتهى بتلك المجتمعات إلى تلك النهايات.

إن الثقافة، ونمط القيم الذي يحكم مجتمعاً هو الذي ينتهي به إلى بر الأمان أو إلى الكارثة ويخطئ من يظن أن المشكلة كلها في الحجاب أو السفور، في هذا المظهر أو ذاك، المشكلة كل المشكلة هي في النموذج.. هي في المثال والقدوة.

في البداية صار أمر العلاقات الجنسية خارج مؤسسة الزواج أمرا طبيعياً بينما كان قبل ذلك وفي جميع المجتمعات ينظر إلى فاعله على أنه زان، ومخالف للنظام الاجتماعي العام، وربما كان البعض

يتستر في البداية، لكن فيما بعد أصبح الأمر طبيعياً بحيث لا مانع عند الطرفين بل حتى المجتمع أن يعيشا تحت سقف واحد وينجبا ولا يزالان غير زوجين!.

ونتيجة لذلك عاد أمر الزنا والسفاح شيئاً عاماً وغير مستنكر، وصارت الولادات غير الشرعية شيئاً كبيراً جداً. ماذا يبقى من الأسرة بعدما أصبح الإشباع الجنسي خارج نطاقها أكثر إمتاعا وأقل تكلفة ومسؤولية؟ وصار بإمكان الشخص أن يأتي بطفل ساعة يشاء ويتركه حينما يريد؟ وأصبحت المرأة تستطيع أن تتعايش مع هذا الشخص على أسس خاصة فمتى ما رغبت في غيره تركته لغيره وأحيانا مع حضوره! ولا يستطيع الاعتراض![١].

كان نتيجة ذلك أن انتشر وباء الطلاق طاحناً العوائل والأسر وملقياً بالأولاد في أحضان الجريمة والفساد.

◄ **وهنا يأتي دور النموذج وأهمية المثال..**

المثال الذي صنعوه لنسائنا وبناتنا من خلال الأجهزة الإعلامية والقائم على أساس أن قيمة المرأة بجسدها، وجمالها وثيابها، وأن سعادتها هي في أن تكون في الاحتفالات والأضواء،

---

(١) تؤمن المحاكم في فرنسا الدفاع عن الزوجة من احتجاجات زوجها، وهناك عدة قضايا حُكم فيها على الزوج ألا يتدخل في الشؤون التي تخص زوجته بعدما اعترض على علاقاتها مع آخرين مع أنها زوجته!!.

وأن تنتمي إلى المجتمع المخملي، حتى ظنت بعض النساء أن من هم في الخارج ليسوا سوى هذه الصور الملونة والجميلة، وأن عليها أن تسعى (**للسمو!!**) إلى ذلك المستوى. مثال الممثلات و(**الفنانات**) و(**بطلات**) الأفلام.. هذا مثال باطل وتافه. فهو إضافة إلى أنه لا يعكس الحقيقة حتى في حدود ما ينقل عنهن، فضلاً أن يكن معبرات عن وضع المرأة عموماً في مجتمعهن.. هذه الانتحارات التي تنقل بين فترة وأخرى والانهيارات التي تصاب بها الكثير منهن، تكشف عن المشكل الحقيقي الذي تعيشه هذه النسوة.. وصلن إلى المال وإلى الأضواء، وإلى الشهوات ولكن لم يصلن إلى السعادة.

صرفن من الأموال الشيء الكثير على الجسد، وأصبحت مقاييسه بالسنتمتر والغرام ومع ذلك لا يزلن يفقدن الرضا فضلاً عن الإحساس بالسعادة.

نحن نحتاج إلى إبراز النماذج الأكمل التي عاشت حياتها الدنيوية بسعادة، وهي في الآخرة إلى خير عظيم.

وهذه الصفحات -عزيزي القارئ- هي إطلالة سريعة على حياة رائدة من النساء وصفت بأنها الكاملة، وهي التي سبقت غيرها بالإيمان، والتصديق، والعطاء والبذل في وقت كفر فيه الناس، وكذبوا، وبخلوا، فكان أن أعطاها الله ما أعطاها.. تلك هي السيدة الصديقة خديجة بنت خويلد عليها السلام .

خديجة بنت خويلد: سطور من النور

عن رسول الله ﷺ **«ما أبدلني الله خيرًا منها آمنت بي حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبني الناس وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ورزقني الله ولدها وحرمني وُلد غيرها»**[1].

تتناول هذه السطور شيئاً من سيرة أم المعصومين عليهم السلام .. اثنا عشر معصوما أمهم هي السيدة خديجة عليها السلام، بالإضافة هي إلى ذلك جدة عشرات الآلاف من عظماء علمائنا ومراجع التقليد والفقهاء في طول تاريخ التشيع.

وهي قبل ذلك أم المؤمنين الأولى وزوجة النبي المتقدمة على الجميع زماناً ومكانة.

ويصادف على المشهور يوم العاشر من شهر رمضان ذكرى وفاتها عليها السلام.

تلتقي خديجة عليها السلام مع رسول الله في الجد الأعلى لهما بالنسب وهو قُصي فهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن

---

(١) ابن عبد البر؛ الاستيعاب ٤/ ٨٢٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٦/ ١١٨، والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ١٣ مع اختلاف يسير في العبارات.

قُصي.. ونبينا ﷺ محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي، فيلتقيان نسبًا في قُصي الذي كان بمثابة الزعيم الذي جعل لقريش مكاناً ومكانة في تاريخ العرب، وكان بمثابة الملك من غير تتويج وهو الذي بنى دار الندوة وهي بمثابة دار الحكومة فيها تعقد الاتفاقات ويقرر السلم والحرب، ويتفق على خروج القوافل التجارية للمجتمعات الأخرى، بل ذكروا حتى قضايا الزواج والنكاح ربما نوقشت في هذا المكان، وأيضاً جعل منصب حجابة البيت وألزم القرشين بقضية السقاية والرفادة للحجيج لمن يأتي، قال: إنكم مسؤولون عن ضيافة بيت الله الحرام أن تسقوهم الماء وتوفروا لهم الطعام، فكان زعيمًا[1] لا

(١) تحدث عن شخصيته د. جواد علي في كتابه المفصل في تاريخ العرب ٧/ ٤٥ فقال: ويذكر الإخباريون أن قصيًّا بعد أن تمت له الغلبة، جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة، فسُمِّي لذلك مجمّعًا، وأنه حكم منذ ذلك الحين فيهم، وملك عليهم، فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكًا، وأطاعه قومه به، وأنه قسم مكة أرباعا بين قومه، فبنوا المساكن، وأن قريشًا هابت قطع شجر الحرم في منازلهم، فقطعها قصي بيده, وأعانوه, وأنها تيمنت به, فكانت لا تعقد أمرًا، ولا تفعل فعلًا إلا في داره، فما تنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره، يعقدها لهم بعض ولده، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه، ثم ينطلق بها إلى أهلها، فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع، لا يعمل بغيره تيمنًا بأمره ومعرفة بفضله وشرفه، واتخذ قصي لنفسه دار الندوة، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها.

ينازع في ذلك، قُصي هذا هو الجد المشترك لخديجة ولرسول الله.

كانت خديجة بنت خويلد في قريش ذات ميزات متعددة:

١) فقد كانت امرأة باهرة الجمال، ولا ريب أن الجمال هو أحد الميزات التي تُحظي المرأة، ولا سيما إذا انضم إليه الأخلاق والاستقامة فينقلون عنها أنها كانت من أجمل نساء قريش.

٢) كما أنها كانت ذات ثراء عريض على مستوى قريش وأهل مكة عامة.

وتعد من الأثرياء في قريش وقد ذكر -صاحب كتاب الأنوار- أبو الحسن البكري رقماً عن ثروتها يظهر أنه مبالغ فيه، وقد نقله عنه العلامة المجلسي[١] في البحار[٢] أنه يقال كان لخديجة أزيد من ٨٠

ويذكر الإخباريون أيضا، أن قريشا كانوا إذا أرادوا إرسال عيرهم، فلا تخرج ولا يرحلون بها إلا من دار الندوة, ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفًا له وتيمنًا برأيه ومعرفةً بفضله، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار الندوة. وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة، وكان يعشر من دخل مكة سوى أهلها..

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ١٦/ ٢٢.. وكان لخديجة في كل ناحية عبيد ومواشي حتى قيل: إن لها أزيد من ثمانين ألف جمل متفرقة في كل مكان، وكان لها في كل ناحية تجارة، وفي كل بلد مال، مثل مصر والحبشة وغيرها

(٢) علق المحشي في البحار على النقل المذكور: بما يلي: (**في المصدر... وكانت خديجة أغنى أهل مكة، وكان لها في كل قبيلة من العرب قريب من الوف من النوق والخيل والغنم، لانها قد زوجت عبيدها**

ألف جمل، ومع كون هذا الرقم مبالغاً فيه كما نعتقد إلا أنه يكشف عن إذعان المؤرخين بسعة ثروتها وكثرة أموالها.

٣) كانت خديجة على درجة استثنائية من الالتزام الأخلاقي بحيث عرفت في قريش بـ **(الطاهرة)**[١] وهذا مُلفت للنظر لأن هذه الألفاظ بعد البعثة والآيات والأحكام والتشريعات صارت مألوفة، ففي القرآن الكريم تم الحديث عن التطهير في الأحكام التشريعية وعن لزوم التطهر سواء الطهارة المعنوية الداخلية أو الطهارة الخبثية الخارجية، إلا أنها لم تكن هذه الثقافة والألفاظ ثقافة مسيطرة بل ولا شائعة في المجتمع القرشي، لأن قيم التفاضل فيه ليست في هذا الاتجاه. ومن الملفت للنظر ذلك في سيرة السيدة خديجة، فمع أنها امرأة جميلة من جهة وثرية من جهة أخرى وشابة فهذه كلها مساعدات على التهتك والعبث[٢]، لكننا نجد هنا أنها تعرف وتلقب بالطاهرة. وهذا كله قبل بعثة النبي ﷺ.

٤) أنها كانت على درجة من كمال العقل والتفكير، فقد نقل

بجواريها، وفرقهم مع العرب، وأعطتهم بيوت الشعر، والخيل والابل، وجعلوا يتوالدون ويكثرون، والدواب تلد وتكثر، وكان لها ازيد من أربعين ألف جمل تسافر بالتجارة إلى الشام والعراق والبحرين وعمان والطائف ومصر والحبشة وغيرها من الامصار، ومعها العبيد والغلمان والوكلاء)

(١) ديار بكري؛ حسين: تاريخ الخميس ١/ ٢٦٤ .

(٢) إن الفراغ والشباب والجِدَة مفسدة للمرء أي مفسدة.

عن رسول الله ﷺ قوله: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد**».

كمال العقل الذي يذكر عادة في الأنبياء والأوصياء، وبدرجة أدنى في العلماء الحكماء، قد يستبعده البعض في النساء لأنهم يرون أن المرأة غالبًا ما تكون مشاعرها وعواطفها في درجة عالية لما يقتضيه طبيعة دورها الانساني في أمر التربية لأطفالها بل في حياطة زوجها، فوصول امرأة إلى درجة كمال العقل يقتضي منها مقاومة شديدة لتأثير العاطفة في التفكير والابتعاد عن غلبة المشاعر عليها لصالح الأحكام العقلية، وهذا–ما يضيق إلى أقصى الدرجات– مساحة من يمتلك منهن كمال العقل.

لا نقصد بذلك بالطبع أنهن فاقدات للعقل!! كما لا نقصد الجانب العلمي فقد تكون امرأة في أعلى الدرجات العلمية والأكاديمية، ولكن كمال العقل أمر آخر.

فنحن الآن امام امرأة ذات جمال ظاهري وثراء مالي وطهر داخلي وكمال عقلي، تلكم هي السيدة خديجة بنت خويلد، والتي هي زوجة لرسول الله ﷺ وأي زوجة؟ لقد جاء بعدها ثمان نساء فيهن البكر والثيب والمنجبة وغير المنجبة والحسناء وغيرها، ومع ذلك لم تقم واحدة، بل لم تقم كلهن مقامها عليها السلام، وقد صرح مراراً بأنه رزق حب خديجة، وبأن الله لم يبدله خيراً منها!!.

◄ هل تزوجت غير رسول الله ﷺ؟

في الجواب على ذلك: نعتقد أنه تزوجها رسول الله ﷺ ولَم يسبق أن تزوجت أحدًا قبله، لا لما ذكره بعضهم من أنه لا يناسب أن يتزوج النبي خديجة وقد رآها أزواج آخرون، فهذا السبب ليس كافياً، وذلك أن المرأة الثيب –عند الله– ليست بأقل منزلة من البكر.

نعم المرأة البكر بالنسبة للزوج أفضل وأحب ولكن أن تكون أفضل عند الله لا يوجد دليل على ذلك!.

المرأة العالمة أفضل من المرأة الجاهلة عند الله ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[1].

المرأة المتعبدة أفضل عند الله من المرأة التي تقتصر على الفرائض، وصاحبة الأخلاق العالية أفضل من التي لا تمتلك نفس المقدار وهكذا.

ولكن أن تكون العذراء البكر عند الله أفضل من الثيب لمجرد كونها بكراً، لا نعلم بوجود دليل على الافضلية عند الله بل نجد في القرآن الكريم ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**﴾[2] ومقتضى ذلك أن تكون كل من الثيبات والأبكار اللاتي يكن بدائل أفضل من الموجودات سواء كن أبكارا أو ثيبات!.

---

(١) سورة المجادلة: ١١

(٢) سورة التحريم: ٥

ويضاف إلى ذلك ان الرأي المشهور لدى الإمامية أن أفضل نساء رسول الله بعد خديجة هي أم سلمة. وقد كانت ثيباً ذات أولاد من زوجها عبد الأسد الذي استشهد في المدينة أوائل الهجرة، لا نقول إن خديجة لم تتزوج قبل النبي لهذا السبب، وإنما لأن القرائن التاريخية لا تساعد على الرأي القائل بأنها كانت متزوجة من شخص أو اثنين عتيق المخزومي وأبو هالة.

إن ما قدمناه من صفات وميزات في خديجة يجعل من الصعب عليها أن تقبل بأي شخص يتقدم للزواج منها، وبالفعل فقد ذكر المؤرخون أنها رفضت عدداً من زعماء قريش ولم تقبل بهم، فقد قيل إنه خطبها أبو سفيان بن حرب الأموي، وعقبة بن أبي معيط وردتهما، وهما أصحاب ثراء واسم في المجتمع القرشي.

وما ذلك إلا لأنها لا ترى فيهما الشخصيات التي ترغب في الاقتران بها، فبينما تعرف هي بالطاهرة، لا يمانع أبو سفيان في أن يتحدث أنه كان يسعى وراء البغايا[1] لقضاء شهوته الجنسية،

---

(١) البلاذري؛ أحمد: أنساب الأشراف ٥/ ١٩٢، قال في قضية استلحاق معاوية زياد بن أبيه «..**وقام أَبُو مريم السلولي- وكان خمارًا فِي الجاهلية- فَقَالَ: أشهد أن أبا سُفْيَان قدم علينا يا أمير المؤمنين الطَّائِف، فأتاني فاشتريت له لحمًا وأتيته بخمر وطعام، فلما أكل قَالَ يا أبا مَرْيَم أصب لي بَغيا، فخرجت فأتيته بسُمَيَّة وقلت لها: أن أبا سُفْيَان من قد عرفت شرفه وحاله، وقد أمرني أن أصيب له عرسًا فقالت: يجيء عبيد زوجي من غنمه، فإذا تعشّى ووضع رأسه أتيته، فلم تلبث أن جاءت تجُر ذيلها فدخلت معه، فلم تزل معه حتى أصبحت..**»

وتنقل هذه القصة من طرفه وجهته!! فهل تراها تقترن بهكذا شخصيات؟ ومثل هؤلاء من نقل أنهم تزوجت بهم، حيث لا يعرف التاريخ شيئاً عن المذكورين أنها كانت زوجة لهما! فلا هما في عير الدنيا ولا في نفير الآخرة! فما الذي يجعلها ترغب في الاقتران بهما والقبول بهما؟!.

ولم تكن خديجة وحيدة في ذلك، فقد ذكر عن سلمى بنت عمرو النجارية زوجة هاشم جد النبي أنه لما رجع من الشام ورأى امرأة جميلة في السوق تأمر وتنهى وتبيع وتشتري وتتكلم سأل هل هي أيِّم -ليس لديها زوج- أو متزوجة؟.

فأخبروه أنها غير متزوجة ولها شروط معينة، ومن شرطها أنها تجلس مع من يتقدم لها فإن أعجبها وإلا ردته، وقد ردت من تقدم لها، فعندئذ لما جلست مع هاشم كان أن وافقت وتزوجها، وسلمى تلك تشبه فيما ذكروه من صفاتها خديجة حيث أنها أيضا كانت ذات جمال وتمتلك ثروة وتدير تجارتها، ولها شخصيتها.

ولو كانت كما ذكر بعضهم قد تزوجت برجلين ليس لهما شأن في المجتمع لاحتج عليها كبار قريش وزعماؤها حين رفضتهم بأنها قد قبلت (**نكرتين في المجتمع آنئذ**) فكيف ترفض هؤلاء؟! هل هذا يناسب كمال العقل؟!.

◄ متى تزوجها النبي؟

بالرغم من أن الرواية الرسمية المتداولة تشير إلى أن النبي قد

تزوجها وعمرها أربعون سنة إلا أننا لا نرى ذلك صحيحاً، وإنما نعتقد أن هذا الزواج المبارك تم وهي في عمر ٢٨ سنة.

وأسهل طريقة لحساب ذلك هو أن نقول أن مدققي المحدثين ذكروا أنها توفيت وعمرها ٥٢ أو ٥٣ سنة، وكانت فترة بقائها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢٥ سنة منها ١٥ قبل بعثته و١٠ سنوات بعد البعثة. فإذا طرحنا مدة بقائها مع النبي من عمرها الاجمالي ينتج لنا أنها حين تزوجت كان عمرها حوالي ثمانية وعشرين سنة.

٢٨=٢٥-٥٣

وقد صرح بكون عمرها ثماني وعشرين حين تزوجها النبي؛ ابن عباس[١]، كما نقله الحاكم في المستدرك عن محمد بن اسحاق صاحب السيرة فقال ذاكراً وفاتها وعقّبه وكان لها يوم تزوجها ثمان وعشرون سنة[٢].

بل نقل ابن كثير في البداية والنهاية أحد الأقوال بكون عمرها حين تزوجت النبي خمسا وعشرين سنة[٣].

(١) ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ٣١٤ ناقلا عن ابن عساكر.
(٢) النيشابوري؛ الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٠٠.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٦٠ قال: وَهَكَذَا نَقَلَ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَاكِمِ أَنَّهُ كَانَ عُمُرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ تزوَّج خَدِيجَةَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَكَانَ عُمُرُهَا إِذْ ذَاكَ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ-وَقِيلَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً.

ورأى الحاكم النيشابوري في المستدرك أن القول بكون عمرها خمسة وستين، وهو ما يلزم من القول بأنها تزوجت وعمرها أربعون سنة فإنها بقيت معه بالاتفاق خمساً وعشرين سنة، رأى القول بأن توفيت وعمرها خمس وستون سنة قولاً شاذاً، وأن الصحيح أنها لم تبلغ الستين، قال **(عن هشام بن عروة)** قال: «**توفيت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي ابنة خمس وستين سنة**». **(قال الحاكم)** «**هذا قول شاذ، فإن الذي عندي أنها لم تبلغ ستين سنة**»[١]، وأما ابن عساكر فقد ذكر في كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين أنه قيل بأن عمرها وقت وفاتها كان خمساً وخمسين، بعد أن أشار إلى القول المشهور من أنه خمسة وستون.

وإذا كان هناك قول بأنها تزوجت وهي في سن الخامسة العشرين، فهذا يلازم استبعاد القول بزواجها من شخصين قبل رسول الله ﷺ، ولو قلنا كما هو الراجح بأنها تزوجت في سن الثامنة والعشرين فبالنسبة لأمثالها لا يكون ذلك مستغرباً، إذا نظرنا إلى صفاتها **(الجمالية والمالية والنفسية)** فلن تقبل بأي شخص، ولن تركض وراء كل بارقة زوج، وإنما مثلها يتعين عليه أن يختار لنفسه، فلن تتزوج من يكون طامعاً في ثروتها ويأتي لها لأجل أموالها، ولا هي في صدد الارتباط بشخص شهواني لا يقف أمام شهواته ونزواته وإنما شأنها -وهي كاملة العقل- أن لا تُرِقّ نفسها

---

(١) النيشابوري؛ الحاكم: المستدرك ٣/ ١٨٢.

إلا لمن يستحقها، ولذلك فقد بحثت عن طريق للارتباط برسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قبل بعثته، فإنه قد دارت في تلك الفترة أخبار عن النبي المبعوث في مكة بشكل كبير، وصار حديث المجالس وتبشير الأحبار في الحديث عن أخلاقه وصدقه وأمانته، فقد ذكر المحدثون أن نسوة من قريش كن جالسات في فناء البيت الحرام، وكانت معهن خديجة، فمر بهن أحد الأحبار فقال: يا معشر النساء يوشك أن يبعث نبي في مكة، فمن استطاعت أن تكون زوجته منكن فلتفعل! وبينما تضاحكت باقي النساء أخذت خديجة الأمر على جديته، حيث لامس ما كانت تفكر فيه. وتعلق قلبها به وطفح على لسانها ذكره، ولعمري فإن من كمال العقل أن تختار المرأة من تريده زوجاً لها وتسعى في الوصلة إليه، لا سيما وهي ستسلمه قياد حياتها وزمام أمرها.

تزامن هذا مع ما قيل من أن أبا طالب كان قد تشاور معه ابن أخيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، في أمر التجارة والكسب والمعاش، فذكر أمر خديجة وثروتها وأنها تستقبل من يعمل معها في التجارة على طريقة المضاربة، حيث يكون المال منها والعمل من المشارك «**وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ومقدماته**» فكان[1] أن تم الاتفاق على أن يخرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الشام بتجارة لها، ويكون الربح بينهما،

---

(١) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى ٨/ ١٢» أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ تَسْأَلُهُ الْخُرُوجَ إِلَى الشَّامِ فِي تِجَارَتِهَا مَعَ غُلامِهَا مَيْسَرَةَ وَقَالَتْ: أَنَا أُعْطِيكَ ضِعْفَ مَا أُعْطِي قَوْمَكَ».

وجعلت تحت يده مدبر أموالها ميسرة وتحت أمره العاملون في تلك التجارة.

ولما رجع النبي من رحلته التجارية الشامية وقد ربح ربحا جيداً، لم يكن هَمُّ خديجة في ربح المال بقدر ما كان يهمها معرفة أحوال النبي من خلال ميسرة غلامها الذي شرح لها ما كانت تنتظره وتستطيبه من ذكر صفاته وأخلاق معاشرته مع الناس، وإدارة أمور التجارة، وأضاف إليها ما رأى من الكرامات والفضائل التي خصه الله بها من تظليله بالغمام في حر الشمس، وغير ذلك.

عندها خطت الخطوة الثانية وهي أن (**تخطب**) النبي محمداً لنفسها!! بلى رغبتها فيه واشتياقها إلى الاقتران به جعلها تفعل ذلك، وصوبت حكمتها وكمال عقلها هذا الأمر فلا ينبغي أن تترك هذه الفرصة، الاقتران بسيد الخلائق والنبي الذي بشر به المرسلون السابقون، تترك ذلك لأجل بعض الأعراف الاجتماعية الخاطئة التي قد تبيح للمرأة الخاطئة أن تنشئ علاقة غير مشروعة مع رجل وتتغاضى عن ذلك، بينما ترفض أن تنشئ امرأة مقدمات الزواج المحلل مع رجل كسيد الخلق!!.

ولأجل هذا فقد ذكرت الأمر لامرأة كانت تدخل عليها وتختصها وهي نفيسة بنت منية، ولنتركها تتحدث عن هذه المهمة، قالت: «**كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير**

وهي يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال.

فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام؛ فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تزوج؟

فقال: ما بيدي ما أتزوج به!

قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟

قال: فمن هي؟

قلت: خديجة!

قال: وكيف لي بذلك؟!

قالت: قلت عليَّ!

قال فأنا أفعل فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن ائتِ لساعة كذا وكذا..»[١].

وبقي بعد ذلك الترتيب الرسمي لموضوع الزواج، فجاء بنو هاشم إلى منزل خديجة يتقدمهم رأس الهاشميين أبو طالب بن عبد المطلب، ليخطب خديجة من عمها باعتبار أن والدها -على ما هو الصحيح- كان قد قتل في حرب الفجار، وبعد أن استقر بهم المقام، خطب أبو طالب خطبة يتبين فيها معرفته بمقام ابن

(١) المصدر السابق ١/ ١٣١ .

أخيه محمد ﷺ، جاء فيها: «**الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع إسماعيل، وضئضيء معد-أي معدنه وأصله- وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرما آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان في المال قلّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا. وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطب جليل**».

ونشير هنا إلى خطأ موجود لدى بعض الكتاب وربما الخطباء وهو أنهم يقولون أن خديجة قامت وسقت أباها خمراً حتى لا يعارض عقد النكاح.. وهذا كلام باطل لجهات:

أولاً: إن أباها كان قد توفي قبل ذلك الوقت بسنوات، فقد نص غير واحد من المؤرخين عليه[1] وذكروا «**إنّ عَمْرَو بْنَ أَسَدٍ -عمها- هُوَ الّذِي أَنْكَحَ خَدِيجَةَ رَسُولَ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَنّ خُوَيْلِدًا كَانَ قَدْ هَلَكَ قَبْلَ الفجارَ**».

ثانياً: لأن هذا لا ينسجم مع ما هو معروف من طهارة خديجة قبل الإسلام، وأنها لم تكن تحب الباطل، وإنما انتظرت هذه السنوات لأنها لا تجد فيمن يتقدم لخطبتها ما يناسب أخلاقها ومبادئها، فهل تراها هناك تتوسل بالباطل وبأن تسقي أباها خمراً؟!.

---

(١) السهيلي؛ الروض الآنف ٢/ ٢٣٩.

ثالثًا: الكل يعرف بأن السكران لا عبارة له ولا يمكن أن يقبل أو يرفض والمعاملة باطلة.

رابعاً: إن بني هاشم وفي طليعتهم رأسهم أبو طالب ممن حرموا على أنفسهم الخمر لما أخذوه من ديانتهم الإبراهيمية، لا سيما والنبي موجود! كيف يسمحون بمثل هذا الفعل؟! ويجرون النكاح على أساس عبارة رجل سكران؟ أفترى النبي يقبل بعقد نكاح قائم على عبارة سكران؟! وهو ممن لا تقبل منه العبارة ولا يصح منه عقد ولا ميثاق؟.

أنا لا أدري هل يلتفت أصحاب هذا القول إلى أنه يستلزم الطعن في رسول الله أولاً وفي بني هاشم ثانياً وفي خديجة ثالثاً وفي صحة نكاح خديجة[1] رابعاً!.

تم العقد وخطب عمها بشكل مختصر موافقاً، وقيل إنه أصابه البهر فقامت خديجة -وكانت برزة وذات شخصية فخطبت

---

(١) قد يقال: إن خديجة لم تكن بكرا فلا تحتاج لاستئذان أبيها، وأن هذا الأمر كان قبل الاسلام، وكلا الأمرين لا مجال لقبولهما، فكونها ثيبا قد تبين في الصفحات الماضية عدم صحته، وأنها لم تر زوجا قبل النبي، والثاني أنه ولو كان قبل الاسلام إلا أن (**لكل قوم نكاح**) وبشروطه حتى يفترق عن السفاح، والنكاح هنا عند العرب كان مرتبطا بإذن الأب. بل كانوا يتشددون في أنه لا بد من ولي في النكاح.. ولو أن الاسلام لم يجعل على المرأة وليا بعد أبيها وجدها لأبيها فيما يرتبط بالنكاح كما يرى الفقه الجعفري.

موافقة على ذلك، ومشيرة إلى أن المهر من مالها -. الأمر الذي جعل بعض الحسدة يقول: رأينا الرجال يمهرون النساء، ما رأينا النساء يمهرون الرجال! فنهض إليه أبو طالب وقال: يا لكع، الرجال مثل محمد، يحمل إليه ويهدى ويعطى، ومثلك من يعطي ويهدي ولا يقبل منه.

لم يتأخر الزواج بعد العقد، وبعده قيل إن خديجة قامت عند البيت الحرام ووكلت من يخطب أن يقول: أيها الناس هذه خديجة بنت خويلد تقول: إنّ ما تملك من مال وشاءٍ وإبل وعقار وأعبد وجوارٍ وغير ذلك كل ذلك قد وهبتها لزوجها محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتصرف فيها كيف يشاء يهب من أحب ويمنع من أحب.

أنظر الفرق ولماذا ارتقت خديجة هذا المرتقى العالي! ومن عجبٍ أن يقارَن بها غيرُها وأن يناقش هل هي الأفضل أم لا؟.

ذلك أن المفسرين قد ذكروا في تفسير آية ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا**﴾[1]. أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ عائشة سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، إِمَّا زِيَادَةً فِي النَّفَقَةِ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَاعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ شَهْرًا فِيمَا ذُكِرَ، ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّرَهُنَّ بَيْنَ

---

(١) سورة الأحزاب:٢٨.

الصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالرِّضَا بِمَا قُسِمَ لَهُنَّ وَالْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَبَيْنَ أَنْ يُمَتِّعَهُنَّ وَيُفَارِقَهُنَّ إِنْ لَمْ يَرْضَيْنَ بِالَّذِي يُقْسَمُ لَهُنَّ[١].

فكان أن أتاه الوحي بالتخيير بعد أن هجرهن أربعين يومًا وأقام في مشربة أم ابراهيم–مارية القبطية – وبعدها خيرهن بين الله ورسوله والصبر على ما يجدن، أو الفراق معهن والتسريح لهن، فكأن أول القائمات أم سلمة وقالت: اخترت الله ورسوله! على أثرها قامت بقية النساء.

شتان بين امرأة تعطي كل ذلك وتشهد عليه، وحتى الآن لم يبعث النبي بالرسالة، وبين باقي النساء اللاتي شهدن نبوته وبعثته وجهاده وصبره وأذاه في أحواله كلها، ثم يطلبن منه المال والدنيا!!

لا غرابة بعد ذلك أن يقول النبي فيها ما يقول من اظهار المحبة لها والتعلق بها، وقبل ذلك لا غرابة أن يكرمها الله بما حرمت منه غيرها من كون نسل النبي وامتداده منها ومن بناتها..

رزقها الله منه قبل البعثة ثلاث بنات هُن زينب ورقية وأم كلثوم[٢]

وأما بعد البعثة فقد ولدت له القاسم وعبد الله ورزقها الله منه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء.

---

(١) الطبري؛ ابن جرير: تفسير الطبري ١٩/ ٨٤.

(٢) يكون الحديث عنهن في فصل خاص بعنوان بنات النبي من خديجة.

◄ جهادها أول البعثة:

لم يقتصر عطاء السيدة خديجة على الجانب المالي وإن كان عظيماً، وقد أشار له أمير المؤمنين علي عليه السلام في توجيه كثرة إنفاقات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: (**وأين يذهب بك عن مال خديجة؟**) فكان بعض الأرقاء من المسلمين يحررهم النبي ويعطي أثمانهم من أموالها المباركة، ولما أمر المسلمين بالهجرة على مرحلتين في الأولى (١٧) كما قيل، وفي الثانية (٧٠) كانت نفقات انتقالهم وطعامهم وشرابهم مما أعطي من مال خديجة حتى روي عنه صلى الله عليه قوله ما نفعني مال قط ما نفعني مال خديجة.

بل كانت تتحمل إنفاقات النبي حتى في الأمور المستحبة فقد قَدِمت حليمة السعدية على مكة بعد أن تزوج رسول الله بخديجة، وشكت إليه الجدب، فكلم خديجة بشأنها فأعطتها أربعين شاة[(١)]. وإلى أن صار الحصار الاقتصادي على النبي وبني هاشم في شعب أبي طالب، فقد أنفقت كل مالها حتى لم يبق لها شيء تنفقه! هذا كله وإن عظم إلا أنه لم يكن جهادها الوحيد. بل كانت أول المسلمات والمؤمنات به، وكانت تتفقد أمره إذا خرج لغار حراء وتأتي له بالطعام، ولك أن تتصور امرأة فوق سن الأربعين –بعد بعثة النبي– تصعد هذا الجبل العالي لكي توصل الطعام لزوجها النبي، وإذ أغري به أشقياء قريش وسفهائهم قامت –مع علي عليه السلام –

---

(١) الصالحي الشامي؛ سبل الهدى والرشاد ١/ ٣٤١.

للذب عنه، وكان بعضهم يرمي بيتها وبيت النبي بالحجارة، فكانت تصرخ في وجوه القرشيين: أترمى الحرة في بيتها؟.

سلام على أم المعصومين الاثني عشر **(فاطمة والحسنين والتسعة من ذرية الحسين** عليهم السلام**)**.

خديجة بنت خويلد (عليها السلام)

﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

«ما أبدلني الله خيراً منها قد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء»[2].

في حياة الرسالات والدعوات الدينية نلاحظ ثلاثة أنماط للمؤمنين بها:

القسم الأول: هو بمثابة القواعد التي تحفر تحت الأرض، ويستحكم بها البناء، وهذه مهما زادت عمقاً وتجذراً في داخل الأرض، زاد البناء استحكاماً وقوة.

القسم الثاني: بمثابة الأعمدة التي ترتفع معتمدة على القواعد،

(١) سورة الحديد ١٠.

(٢) مسند احمد ح ٢٣٧١٩.

وترفع من فوقها السقوف، وهي التي تكون البناء وتعطيه صورته الحقيقية، وعليها يكون استثمار البناء والاستفادة منه.

القسم الثالث: بمثابة الأصباغ والألوان، وهذه لا تأثير أساسي لها في أصل البناء ولا في استحكامه، وإنما تعطي للبناء صبغاً ولوناً خارجياً فقط وتعلن عن نفسها وعن البناء.

ومشكلة الناس أنهم يخلطون بين الثلاثة، فيساوون الأول بالأخير أو الثاني بالأخير، بينما ﴿**لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا**﴾[١] البارزون في الزحام، والمتهالكون على الأسماء، والألوان، والذين لهم في كل عرس قرص، وفي كل موقف عملي لهم كلام كثير..

خديجة المباركة[٢] كانت من أجلى مصاديق القسم الأول، فهي بمقدار ما عملت وما أدراك ما عملت لم تكشف عن تلك الأعمال غطاء السر، ولم تتحدث عن نفسها ولا عن حب رسول الله لها كما فعلت غيرها.

خمسة وعشرون عاماً حافلة بالأحداث ومليئة بالقضايا، منها عشرة أعوام بعد بعثة النبي ﷺ، وخديجة معه في كل مواقفه، تؤيده وتدعمه، وتعطيه صفوة مالها.. كم كان هذا المال مباركاً به

(١) سورة الحديد آية ١٠.

(٢) ورد في الروايات أن الله قد لقبها بالمباركة وأي بركة أعظم من كون نسل الرسول ﷺ لم يستمر الا منها، فهي أم الكوثر.

ينعش الله فقراء المسلمين في ذلك الوقت الذي كان بعضهم لا يجد قوت وجبته، وبه يحرر العبيد المؤمنون الذين كانوا عرضة للهلاك تحت أيدي جلاديهم، ولم ينقل التاريخ لنا أن خديجة قد تكلمت يوماً عن هذا الأمر، بينما نقل عن بعض المسلمين من (**أهل الألوان والأصباغ**) أنهم كانوا إذا فعلوا خيراً علقوه على رقابهم ومشوا به بين الناس وربما منّوا على من فعلوا لهم ذلك الخير!!.

ولهذا لم يكن غريباً أن تبقى ذكرى خديجة في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر خديجة على لسانه إلى ما بعد الهجرة - أي بعد وفاتها بأكثر من خمسة عشر عاماً - مع وجود عدد غير قليل من النساء معه، ولكنه قد رُزق حب خديجة، كما قال صلوات الله عليه.

◄ خديجة الطاهرة:

الالتزام في المجتمع الطيب شيء ليس بالعسير، والفضيلة في محيط طاهر أمر قد يستطيعه الكثير، لكن الالتزام الديني في مجتمع الانحراف، والتمسك بالطهر في مجتمع الجاهلية أمر صعب، وفاعل ذلك ينبغي تقديره باعتبار أنه يسير نحو القمة مع أن الموج يخالف اتجاهه، ويقاوم مسيرته الصاعدة. وخديجة بنت خويلد عليها السلام كانت من هذا النوع، فالمجتمع الذي عاشت فيه كان محيطاً موبوءاً بالمعصية والانحراف، وكان أمر البغاء والزنا شيئاً لا يتورع عنه كبار القوم في قريش فما ظنك بصغارهم، وكانت ذوات الرايات جزءا من النسيج الاجتماعي المألوف، لكن المعدن الطيب

لهذه المرأة الصالحة ورجحان عقلها «**إذ إنه كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع..**» وخديجة كما هو مفاد حديث[١] لرسول الله ﷺ، جعلها تسلك طريق الكمال والفضيلة والطهر حتى لقد لقبت في أيام الجاهلية وقبل مجيء الإسلام بـ(**الطاهرة**).

وفي هذا الطريق الطيب نراها عليها السلام تبحث عن طاهر تعيش معه، وكان قد ملأ إهابها إعجاباً ما تسمعه عن محمد بن عبد الله، هذا الشاب المتميز في المجتمع المكي، والذي لا يشبه أحداً ولا يشبهه أحد، في كمال خلقه وفي مفارقته للجو العام الجاهلي السائد في المجتمع المكي، وبدأت تفكر في كيفية مناسبة للتقرب منه،

---

(١) قال الزيلعي في تخريج الأحاديث والأخبار ٤/ ٦٧ «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد...**» قلت: رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمرو بن مرة فقال حدثنا سليمان بن أحمد ثنا يوسف القاضي ثنا عمرو بن مرزوق ثنا شعبة عن عمرو بن مرة سمع مرة يحدث عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع.. انتهى كلام الزيلعي. أقول: الغريب أن البخاري ومسلما قد اقتصرا على ذكر مريم وآسية!! وكأنهما استكثرا أو الراوي على خديجة وفاطمة أن تكونا كاملتين كمريم وآسية!! وأما غيرهما فقد جعل الكاملات ثلاثا!!، فقد نقل ابن كثير في تفسيره ١/ ٣٧١.. من طريق شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد!!**».

وهذا ما يشير إلى كمال عقلها فإنها لو استسلمت للجو العام لما عدت أصحاب المال المعدمين أخلاقاً، وأصحاب الجاه الاجتماعي ورؤساء القبائل، ولكنها نظرت بعيداً، وكذلك أيضاً لم تترك العادات والمألوف هي التي تقرر مصير مستقبلها، فإنا نلاحظ أن قسماً من الناس يفكرون بنحو جيد، ولكن تقيدهم العادات، وتحاصرهم التقاليد، فتسوقهم إلى اتخاذ قرارات على غير قناعاتهم، مثل أن المرأة ينبغي في موضوع الزواج أن تكون **منفعلة**، ومنتظرة فإن جاء رزقها كما تحب وإلا فهي لا تستطيع أن تحرك ساكناً إلا أن هذه المرأة النموذجية بدأت تفكر في كيفية مناسبة للقرب من محمد، لا سيما وهي تسمع كلاماً هنا وهناك أن رسولاً سيبعث في أم القرى، وإذا قُدر ذلك في زمانها فمن سيكون أولى بهذه المنزلة من محمد؟.

في الطرف الآخر كان محمد بن عبد الله ﷺ، قد بلغ من السن ما يقتضي منه الاستقلال والاعتماد على نفسه بل مساعدة عمه وكافله أبي طالب، وكان أن التقت الرغبتان فخرج محمد في أموال خديجة مضارباً بها إلى الشام.

وعاد محمد من سفرته التجارية.. عاد وقد ملأ نفس ميسرة غلام خديجة إعجاباً، وأترع قلبه حباً، ورأى معه من العجائب ما ينبغي أن يكون حديث المتكلمين والسُّمار.. فالملكان اللذان يظلانه عن الشمس وصفقة يمينه التي تباري السحاب في بركتها، وأمانته في المعاملة وصدقه فيها، يبطل كل ما قالوه من أن السوق تحتاج إلى

أسلوب خاص يعتمد على **(الشطارة)** والكثير من الكذب، وخداع المشتري واستغفاله، وأن الذي يريد أن يأتي إلى التجارة بمنطق المتقين، وطريقة الأخلاقيين فلن يحصد غير الخيبة..

ها هو محمد.. صدقه في حديثه لا يفارقه، وأمانته في المعاملة لا تخلو منه لحظة، ومع ذلك فقد ربح وربح، ما لو حصل غيره عليه لطار فرحاً، وهام على الثريا اختيالاً.. لله دره أي سر فيه هذا الرجل؟.

برقت عيناها بسرور الغبطة، وهي تسمع حديث ميسرة ورأت أنها لم تذهب بعيداً، بل وافقت حسابات الحقل البيدر.. زادت له حباً، وبه تعلقاً وبدأت تفكر كيف يواتيها سعد حظها في الاقتران به، وكان أن أسرت في ذلك لبعض نسائها، ثم أرسلت إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا بن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك**».. ولعمري إن هذه الكلمات بقدر ما تعرب عن كمال عقل هذه المرأة الطاهرة لتصلح أن تكون برنامجاً تتبعه كل امرأة تريد الزواج والشراكة الحياتية.. فهي قد فصلت ما ينبغي أن تبحث عنه امرأة عاقلة لبيبة، تهافت عليها الرجال الأثرياء وزعماء البلد وقد كانت عندهم الطاهرة وأجمل نساء قريش وأثرى الجميع وردتهم بينما سعت هي بنفسها لكي تتزوج من رجل لا مال كثير له.

استجاب النبي وكان الزواج قبل البعثة وتقدم مع عمه أبي طالب عليه السلام وصحبهم حمزة بن عبد المطلب وعدد من بني هاشم،

وخطب أبو طالب لابن أخيه خديجة، متقدماً بهذه الكلمات الرائعة التي تنبئ عن استشرافه لمستقبل النبي ودينه الذي سيظهر على الأديان، فمن جملة ما قال:

الحمد لرب هذا البيت الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل وأنزلنا حرماً آمنا وجعلنا الحكام على الناس وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه.

ثم إن ابن أخي هذا ممن لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به؛ ولا يقاس به رجل إلاّ عظم عنه ولا عدل له في الخلق وإن كان مقلاً في المال فان المال رفد جار وظل زائل وله في خديجة رغبة وقد جئناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها والمهر عليَّ في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله.. وله ورب هذا البيت حظ عظيم ودين شائع ورأي كامل[١].

وقام عمها لكي يخطب مجيباً بالقبول، فأخذه البهر والموقف فلم يستطع أن يبلغ حاجته، فقامت خديجة وقبلت لنفسها[٢]، بل

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، أصول الكافي ج٥ ص٣٧٥.

(٢) أما ما يذكره البعض من أنها قامت إلى أبيها فسقته الخمر، وتم العقد وهو ثمل، حتى إذا أفاق قام صاخباً!! فهذا لا يقوله عالم! ذلك أن أباها قد توفي قبل هذا بفترة طويلة.. وهكذا الزعم بأن عمها لم يكن موافقا على الزواج وأنه كادت أن تحدث معركة لأجل ذلك فهذا أسوأ من سابقه لأن خديجة كانت ذات شخصية استثنائية وكانت سيدة قريش ولم يكن لأحد عليها أمر ولا نهي حتى يوافق أو يأبى!!

وضمنت المهر في مالها أيضا.. فقال بعض من حضر: يا عجباً المهر على النساء للرجال؟ فرد أبو طالب عليه: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلى الأثمان وأعظم المهر وإذا كان أمثالكم لم يزوجوكم إلا بالمهر الغالي.

انتقلت خديجة إلى بيت النبي، وعاشت معه خمس عشر سنة قبل البعثة وهي ترى كل يوم عجباً من عجائبه ينبئها عن المستقبل العظيم الذي تنتظره البشرية من بركته وعمله. وكانت صلوات الله عليها تتحرى مواضع رضاه فتواتيها، فقد قَدِمت على رسول الله مرضعته حليمة السعدية، فقام إليها متذكراً أيام طفولته ورضاعه من صدرها، مناديا إياها: أمي، أمي.. وألقى إليها بردائه وأقبل عليها يسألها عن حالها، وما أن ذكرت له ضيق اليد، وخشونة الدنيا، وتقدم السن بها إذ يمر على ذكرى رضاعه حينئذ ما يقارب الثلاثين عاماً حتى انبعث رسول الله ﷺ وما أكثر ما يحرك ضميره حاجةُ الإنسان فكيف إذا كان مرضعته!! قام لخديجة يحدثها عن مرضعته ولزوم مساعدتها، وخديجة التي تتطلب قضاء حاجة لزوجها فلا يكلفها بل يقضي حوائجه بنفسه، ها هي لا تسعها الفرحة، لتقضي لمحمد حاجة يطلبها، فتأمر بما يسر محمداً ﷺ، قطيع من الغنم، ومعه ناضح يحمل الماء.. لمرضعة الحبيب المصطفى، وقد كان ذلك سبباً في رجوعها في عام آخر بعد البعثة وإسلامها وزوجها على يد رسول الله[١].

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١٥ ص٤٠١.

خديجة المؤمنة

يعاني المصلحون مشكلة في تعويد زوجاتهم على نمط الحياة التي يعيشونها، ويعانون أكثر من عدم استقبالهن للتغيرات التي تحصل في تلك الحياة، والمراحل الجديدة التي يطوونها، ذلك أن هؤلاء يواجهون المجتمع المنحرف عنهم والمقاوم لتوجهاتهم، هذا خارج البيت والأسرة، ويتوقعون أنهم يجدون الدفء والدعم في داخل البيت، فإذا كانت زوجاتهم غير مستعدات لتلقي هذه التغيرات بدعم أزواجهن والتخفيف عنهم فإن مصيبة المصلح تكون مضاعفة، فضلاً عما إذا كانت الزوجة غير مؤمنة به، ولذا وجدنا تعبير القرآن عن هذا الصنف من النساء تعبيراً قاسياً، كما يلحظ في سورة التحريم ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[١].. إن تعبير القرآن الكريم عنهما بالخيانة مع أنها ليست الخيانة الزوجية، ليكشف عن مدى شناعة العمل في نظر القرآن الكريم، وإنما كان تخلياً عن عقيدتهما وعن دعم النبيين المذكورين في الآية.

في المقابل نجد بعض النساء اللاتي اختصهن الله سبحانه بمنزلة دعم الأنبياء والأوصياء، فكنّ كهفاً دافئاً يلجأ إليه الأنبياء في صقيع الخذلان الاجتماعي، وظَهراً يستندون إليه عندما ينكشف

---

(١) سورة التحريم: ١٠.

الناس عنهم.. وفي طليعة أولئك بل أولاهن على البشر كانت أم المؤمنين خديجة عليها السلام، فقد ضربت المثل الأعلى بفعلها للإيمان المستعلي على المصالح، المضحي بكل شيء، وللزوجة الدافعة لزوجها، الخائضة معه لجج الغمرات، وتحدي الصعوبات.

وقد بدأت أولاً بالإيمان به صلوات الله عليه عندما أوحي إليه من قبل الله، ومع أننا لا نتفق مع الروايات التي تنقل ومفادها أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نزل عليه جبريل وغطه عدة مرات، وأنه خرج من ذلك يرجف، وجاء إلى بيت خديجة قائلاً لقد خشيت على نفسي!! وأنها ذهبت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها وكان قد تنصر وقرأ الكتب، فأقنع ورقة بن نوفل النبي محمداً بنبوته ورسالته!! أو أنها أدخلت النبي بين درعها وجلدها فكانت إذا فعلت ذلك اختفى عنه جبريل وإذا أخرجته رأى جبرئيل.. أو أن النبي كان قد ذهب ليتردى من الجبال في عملية انتحار لم يسبقه بها نبي من السابقين، ولكن جبرئيل تبدى له حينئذ، إلى غير ذلك مما ذكروه.

نحن لا نعتقد بأي من تلك الروايات، وإنما نرى أن مجيء جبرئيل بالوحي للنبي كان أمراً متوقعاً من قبله صلوات الله عليه، وأنه كان يرى إرهاصات النبوة قبل هذه الحادثة بفترة طويلة من الزمان، كسلام الكائنات عليه، والرؤيا الصادقة، بل إن نبوته كانت متوقعة من قبل آخرين من أهل بيته كجده عبد المطلب وعمه أبي طالب، فكيف يخفى عليه ما ظهر لغيره من تكريم الله إياه؟ وهو مفاد رواية صحيحة عن الإمام الباقر عليه السلام «.. **وأما**

النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم ونحو ما كان رأى رسول الله من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة»[١]، والرواية تتحدث عن أسباب للنبوة قبل الوحي وليس سبباً واحداً.

نعتقد أن النبي ﷺ عندما بعث وكان ذلك مع بداية نزول الوحي عليه كان متوقعاً لذلك الحادث ولم يشك فيه لحظة واحدة ولم يكن محتاجاً أن يؤتى به إلى عالم نصراني لكي يقنعه بأن هذا هو الناموس الأعظم كما ذكروه، وإنما رجع إلى بيته، وقد أحس بثقل المسؤولية العظمى التي ألقيت على عاتقه، والتي سوف يواجه لأجلها هذا الكيان الجاهلي بما له من كبرياء الحمق، وجبروت الجهل والقوة.. لكنه كان مصمما على القيام بهذه المهمة.

وهنا يبرز دور الطاهرة خديجة صلوات الله عليها، التي استقبلته في عودته تلك بأفضل ما يستقبل به صاحب دعوة، وآمنت به على الفور لأنها تعتقد أن هذا الرجل هو الذي تتجسد فيه كل صفات الأنبياء بل يتفوق في صفاته عليهم، فلو لم يبعث رسولاً لكان الأمر غريباً.. فإنه ليصل الرحم ويصدق الحديث ويحمل الكَل ويُكسب المعدوم ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق!.

وقد كانت عليها السلام أول من آمن به، فمنذ أن جاء من غار حراء يحمل على عاتقه مسؤولية هداية البشر ودعوتهم إلى رب العالمين،

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، ج١ ص١٧٦.

هيأت له كل ما يحتاجه صاحب الدعوة، فقد آمنت به بصدق، وراحت فيما بعد تخفف عنه أذى قريش، وتكذيبهم، وتتحرى راحته، ويا بؤس نهارها لو سمعت أن رسول الله قد أوذي فهي لا تلبث أن تخرج مستنجدة بعمه أبي طالب مرة، ومدافعة عنه بصورة مباشرة أخرى، ولقد أصابها من أحجار الكفار مقدار ما أصابها من شتائمهم.. بل إن حجارة السفهاء كانت تصل إلى داخل بيتها ملاحقة رسول الله ﷺ.

◄ المجاهدة المنفقة

منذ اليوم الأول الذي قبلت فيه الزواج من رسول الله، جعلت خديجة نفسها وأموالها وقفاً على رسول الله، فإنهم يذكرون أنها كلفت ابن عمها ورقة بن نوفل أن يعلن على جميع القرشيين بأن ما تملك ملك رسول الله، فقام ورقة منادياً: يا معاشر العرب إن خديجة تشهدكم على أنها وهبت لمحمد نفسها ومالها وعبيدها وجميع ما تملكه يمينها إجلالاً له وإعظاماً لمقامه ورغبة فيه.

كان هذا الإعلان الصادق منها يعبر بشكل كامل عن طريقة الحياة التي اختارتها مع النبي محمد ﷺ، وبالفعل فقد ترجمت حياتها مواد هذا الإعلان فقد أنفقت وأنفقت حتى لقد قام الإسلام على عمودي سيف علي ومال خديجة. وكان النبي يتصرف في ذلك المال لنصر الدعوة فيُعِين الفقير الذي أضر به الفقر، ويعتق المملوك المسلم من يد مالكه الكافر، بل إن تجهيز المسلمين للهجرة

كان من أموال خديجة، فإنه من المعلوم أن السفر أياً كان يحتاج إلى مؤونة مالية سواء للطعام أو للراحلة، أو بعد الوصول إلى المقصد حتى تتهيأ حياة جديدة للمهاجر، وكان المسلمون المهاجرون لا سيما للحبشة غالبهم من الضعفاء والفقراء فكان مال خديجة هو الأساس المعتمد، وهجرة الفواطم وأهل النبي من مكة للمدينة كذلك، ولهذا لما سئل أبو رافع وهو يحدث عن هجرة علي عليه السلام من مكة: أو كان يجد النبي ما ينفقه هكذا؟ قال: وأين يذهب بك عن مال خديجة عليها السلام؟.

وبعدها لا غرابة أن نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أسلمت له العرب أقدارها، واليهود أذعنت إليه بأموالها، وأصبحت ميزانية الدولة الإسلامية في عهده ضخمة، ومع ذلك يقول: ما نفعني مال قط ما نفعني مال خديجة![1].. لقد كانت صاحبة المال مباركة وكانت نيتها في العطاء خالصة، فجاءت هذه البركات.

◄ أم الذرية النبوية الطاهرة

كان رهان الكفار أولاً على النبي، وأنه سوف يتراجع عن دعوته عندما يجد أن قريشاً كلها يد ضده، أو أنهم يمكن أن يغروه بالمال وغيره.. وفشل هذا الرهان منذ الأيام الأولى عندما أعلنها بصراحة لهم: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه. ثم كان

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٩ ص٦٣.

رهانهم على إيذاء المسلمين وفتنتهم، وأنهم عندما يلقون الإيذاء والاضطهاد والمقاطعة سوف يتركون دينهم الجديد.. ولم يكن حظ هذا الرهان إلا كسابقه.. وكعادة الغريق الذي يتشبث بأي حشيش أو طحلب، راهنوا وما أكثر رهانهم وقمارهم هذه المرة على الزمان والأيام، فهم يرون أن محمداً هو كل شيء في هذه الدعوة، وعما قريب يهلك أو يقتل، فتموت بذلك دعوته إذ أنه لا عقب له، بل هو (**أبتر**) كما كان يقول العاص بن وائل.

وهنا يتجلى إكرام الله لخديجة، ومباركته إياها فإذا بها تكون أم الذرية، ووالدة الكوثر، ويمن الله سبحانه على نبيه وعلى هذه السيدة الجليلة بل على الأمة بهذه السلالة الطاهرة ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣**﴾[1].

فقد رزق الرسول منها القاسم والطاهر (**وهو عبد الله**) وقد توفيا صغيرين، كما رزق منها سيدة نساء العالمين أجمعين فاطمة الزهراء عليها السلام، وهي التي كان منها ذريته وبقي منها نسله، فكانت بحقٍّ (**الكوثر والخير الكثير**)، وبقي امتداد رسول الله منها ذرية طيبة يملؤون الأرض نوراً وهدايةً في كل عصر، وينفون عن الدين تأويل المبطلين.. بينما كان شانئه وشانئهم هو الأبتر، الذي يذهب الضجيج الذي يصنعه بذهابه ويموت ذكره بحلوله في التراب.

والذي ينبئ عن اختصاص السيدة الطاهرة المباركة بهذه المنقبة

---

(١) سورة الكوثر.

أن نساء النبي جميعاً لم يرزق النبي منهن بشيء[١] ما عدا مارية والتي توفي ابنها إبراهيم مبكراً مع أن فترة بقائه مع كثير منهن كانت في حدود العشر سنوات، وكان فيهن البكر والثيب ومن أنجبت من غير النبي قبله كأم سلمة رضوان الله تعالى عليها، ولكنها منقبة اختصت بها هذه الطاهرة التي ملّكت نفسها لرسول الله ﷺ حتى قبل بعثته رغبة فيه وإجلالا لمقامه.. و﴿**مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾[٢].

من الجنة هذه المرة تشكلت النطفة الطيبة ليأتي منها الكوثر.. فقد روي في أكثر من سند بأن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يظهر نور فاطمة الزهراء صلوات الله عليها أمر نبيه أن يعتزل خديجة مدة من الزمان، يكون فيها صائم النهار قائم الليل، حتى إذا تمت تلك المدة أتحفه بتفاحة من طعام الجنة هدية الرب الجليل إلى عبده ورسوله لُتبنى خلقة فاطمة على طعام الجنة الخالص من الشوائب والأدران، وبالفعل فقد واقع النبي أهله بعد ذلك مباشرة فمنها تكونت فاطمة عليها السلام ولذلك كان النبي إذا أراد أن يشم رائحة الجنة قبّل الزهراء (**تفاحة الفردوس والخلد التي شرف الله مولدها بنساء الجنة وسل منها أنوار الأئمة**).

---

(١) ورد في حديث لرسول الله إشارة إلى أن الله قد وهبه الذرية منها بينما حرمت الباقيات عن ذلك، لما سمع إحدى نسائه تنتقد خديجة.

(٢) (**سورة النمل: ٨٩**)

◄ عام الحزن

ألف يوم تقريباً، هي الفترة التي قضاها بنو هاشم والمسلمون مع رسول الله في شِعب أبي طالب وهو واد بين جبلين في مكة.. وذلك بعد أن أعلنت قريش المقاطعة الاقتصادية الشاملة ضدهم، فلم يسمح لهم بالشراء من بائعي مكة، ولم يشتروا منهم شيئاً، ونفد القوت وانتهت الأطعمة حتى لقد كان أطفالهم يتضاغون من الجوع، ولكنها ضريبة الإيمان التي دفعها المسلمون برضا نفس، وسكينة قلب. غير أن الفترة تلك قد أثّرت في صحتهم وأبدانهم، وخديجة بنت خويلد التي كانت أغنى امرأة في قريش، ها هي ترقد على بساط هو والتراب واحد في ذلك الشعب وقد نحلت قوتها، وشحب لونها إلا من ابتسامة الاطمئنان المشرقة وهي تتوقع الوصول إلى حبيبها السلام الذي منه السلام وإليه يعود السلام.

يمر عليها رسول الله، فيرى خديجة التي ما نفعه بمال كما نفعه بأموالها ها هي تعيش لحظاتها الأخيرة، وهي صفر اليدين من أموال الدنيا التي أنفقتها لشراء الآخرة ولقد ربح بيعها، لكن الأمر محزن، أن تكون في هذه اللحظات وبهذه الصورة فلا يستطيع الرسول أن يفعل لها شيئاً.. فقال لها: بالكره مني ما أرى منك يا خديجة وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً.. أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون؟[1].

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٩ ص٢٠.. والجدير ذكره أن هذا النص يكشف عن أسماء زوجاته من أهل الدنيا وأما ما قيل من أن زوجاته في الدنيا هن زوجاته في الآخرة فلا يثبت.

وجاءت بعد ذلك أسماء بنت عميس فوجدت خديجة تبكي، فجلست تنهنه عنها، وتذكرها أنها واردة على من هو مشتاق إليها، ومن صرفت عمرها لأجله، فأخبرتها أنها لا تبكي لفراق الدنيا وإنما تبكي لحال ابنتها فاطمة: فإنه لا بد للمرأة ليلة زفافها من امرأة تفضي إليها بسرها، وتستعين بها على حوائجها، وفاطمة حديثة عهد بصبا وأخاف ألا يكون لها من يتولى أمرها حينئذ. فعاهدتها على أن تكون لفاطمة في ليلة زفافها كما أرادت خديجة..

واطمأنت الطاهرة إلى وضع فاطمة في أول ليلة من حياتها الزوجية، أغمضت عينيها، وصافحتها الملائكة مسلمة، وقدمت الروح على بارئها.. إلى جنته حيث لا نصب ولا تعب ولا صخب.

وما نقل سواء في البخاري أو في مسند احمد ليس مسندا لرسول الله بل هو لو تم سنده كلام لعمار وليس لرسول الله.

الصديقة الكاملة

عن رسول الله ﷺ أنه قال:

- **«أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»**[1].
- **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد»**[2].

في البداية لا بد أن نقول أن المثال لا يعترف بالجنس، بمعنى أن المثال الأعلى لو كان مذكراً فلا يحصر أمر الاقتداء به بالرجال وهكذا النساء.

خديجة: (**إنسان**) كامل ولذلك ينبغي أن يقتدي به الرجال والنساء، وهذا ما أشار إليه القرآن عندما ضرب مثلاً: آسية بنت مزاحم، وهي مثال للإنسان الذي يستطيع أن يتغلب على الظروف التي تجبره للكفر أو الانحراف.

---

(١) فضائل الصحابة–النسائي–ص ٧٦

(٢) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٩/ ٣٥٣

وعندما يقدم رسول الله خديجة يقدمها مثلاً يقتدى به في محيط النساء والرجال.

والحديث عنها متعدد الجوانب رائع، تعدد جوانب الخير فيها وروعتها.

كانت تلقب حتى قبل بعثة الرسول بالطاهرة، وهذا يشير إلى نقطة هامة وهي أن التفوق المتأخر لا يمكن أن يأتي بصورة فجائية، بأن يكون شخص في السابق فاسقاً فاجراً وفجأة يصبح من المقربين في قفزة واحدة، فهذا ليس من السنة الاجتماعية في شيء، وإنما الطبيعي هو أن يكون الشخص لديه مقدمات في نفسه حتى إذا تهيأت لها ظروف السمو والتكامل تكاملت ووصلت.

وربما يكون هذا هو المقصود من ما روي أن: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام**»[1]. بمعنى أن من يكون في تلك الظروف التي تكثر فيها دواعي الانحراف، فاضلاً وخلوقاً، فإنه يفترض أن يكون في الإسلام أفضل مع وجود الظروف المناسبة والمواتية.. فلو صح هذا الحديث فإنه يمكن توجيهه بهذا المعنى.

---

(١) ذكره الإمام الشافعي في كتاب الأم ١/ ١٨٩ مرويا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: تجدون الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا».

وشبيه بهذا اللفظ أورده الشيخ الكليني في الكافي ٨/ ١٧٧ في حديث مرفوع عن الإمام الصادق عليه السلام :أنه قال: الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فمن كان له في الجاهلية أصل فله في الاسلام أصل.

فإذا كانت في الجاهلية تسمى بالطاهرة، فما ظنك بها في الإسلام، فكيف إذا صارت زوجة لرسول الله ﷺ؟! خصوصاً أن الجاهلية لم تكن تنظر إلى كثير من الانحرافات نظرة سيئة، فإننا نجد أن مثل أبي سفيان يأتي بشكل واضح ويقول لأحدهم التمس لي بغيًّا[1]. وهكذا كانت بيوت الدعارة، وذوات الأعلام.. فما كانت تلك الانحرافات شيئا ناشزاً، **(إلا من وجود بعض المتحنثين، والسائرين على ما تبقى من شريعة إبراهيم الخليل)**.

فلو نظرنا إلى ذلك الوضع، من امرأة مالكة لأمرها، وثرية جداً، والجو يساعد على الانحراف، ومع ذلك تأتي في ذلك الوضع وتعرف بلقب الطاهرة.. هذا أمر ينبغي التفكير فيه جدياً.

- شاءت إرادة الله أن تكون هذه المرأة الطاهرة، منجبة لأولاد الرسول، كما أشار إليه الرسول في بعض أحاديثه أنه رزقني الله الولد منها وحرمني من غيرها، مع ملاحظة وجود ثمان نساء أخريات له، فيهن الثيبات والأبكار، ومنهن من أنجب قبل زواجها من رسول الله، أي لم تكن عقيمات، وفيهن من

---

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٩/ ١٧٣ فقال: وكان أبو سفيان صار إلى الطائف فنزل على خمار يقال له أبو مريم السلولي وكانت لأبي مريم بعد صحبة فقال أبو سفيان لأبي مريم بعد أن شرب عنده قد اشتدت به العزوبة فالتمس لي بغيا! قال: هل لك في جارية الحارث بن كلدة سمية امرأة عبيد؟ قال هاتها على طول ثدييها وذفر إبطيها فجاء بها إليه فوقع لها فولدت زيادا فادعاه معاوية.

بلغن الدرجات العاليات من الإيمان والخلق، وقد بقين معه فترة طويلة يمكن معها الإنجاب، وكان الرسول يقوم بواجب كل واحدة الزوجي. ولكن هذه خصيصة خديجة وميزتها، والنعمة التي حباها الله بها دون غيرها، أن يكون أبناء رسول الله وذريته منذ ذلك الوقت إلى يوم القيامة، جدتهن الكبرى خديجة.

◄ ما هو سبب ذلك؟

ينبغي أن نفكر في مقالة النبي «**حين كذبني الناس، حين حرمني**».. مسألة التوقيت والـ (**حين**) لها أهمية عالية، وله الأثر الأكبر بحيث لو تقدم أو تأخر ربما لم يكن نافعاً أصلاً، أو لم يكن نافعاً النفع الأكبر، فلو أن شخصاً كان عطشاناً عطشاً يودي به إلى الموت، فهناك لحظة ينفعه وصول الماء حينها، أما لو تأخر هذا الماء عن الحين والوقت المناسب ووصل بعد يوم مثلاً، لما كان نافعاً أصلاً.

عندما يأتي للنصرة أحد ولكن بعد كثرة الناس، فهذا وإن كان نافعاً إلا أنه ليس كما تكون النصرة حين القلة والضعف، وخصوصاً أنه في هذا الوقت يكون التراجع وعدم تحمل المسؤولية..

لماذا نجد أن يوم الدار يعتبر فضيلة ومنقبة لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام؟ إن ذلك بالنظر إلى الظرف والوقت الذي كان فيه رسول الله، فإنه كان يعيش في مجتمع مكذب، وفي عائلة معارضة

لدعوته، ومع أعمام جاحدين – إلا القليل منهم – هنا كان موقف النصرة والاستجابة يعدل مئات المواقف عندما تتغير الظروف.

وهذا يختلف عن مجيء النصرة في فتح مكة عندما جاء بعشرة آلاف مقاتل وذلك أنه ﴿**لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا**﴾[١].

إن خديجة في ذلك الحين الذي بدأ فيه الدعوة وقد كانت كل المؤشرات في غير صالح الرسول، قامت هي باختيار الرسول زوجاً قبل هذا الحين بفترة كافية (**نؤكد على أنها اختارت النبي**) وذلك من كمال عقلها الذي أشير إليه في بعض الروايات أنه كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: إحداهن خديجة بنت خويلد.

ثم تصب بين يديه كل أموالها في سبيل نصرة دعوته.. وتكون له درعاً حامياً.

وهنا نشير إلى قضية وهي: أن أصحاب الدعوات يحتاجون إلى أمرين: حماية خارجية، وسكن نفسي ومن دون هذين العنصرين ستتعقد أمورهم.

وقد توفر كلا الأمرين لرسول الله، قام بالأول أبو طالب، فصد عنه المشاكل والهموم، والتحديات والاهانات، بل كان

(١) الحديد: من الآية ١٠

يتحدى كل القرشيين لو قاموا بتهديد رسول الله، ولذا نقل أن أبا طالب لما توفي أمر النبي بالخروج من مكة فإنه لم يبق له فيها ناصر.

والأمر الآخر، هو السكن النفسي والهدوء الداخلي، فمتى فقده الإنسان -صاحب الدعوة- فإن مهمته تتعقد، ولذا أشار القرآن إلى نبي الله لوط ونوح، وأن نساءهما خانتاهما،-والخيانة هنا-لا تعني الخيانة الجنسية وإنما الخيانة في الدعوة وعدم الإيمان بها، بل التعامل مع المجتمع المحيط ضد النبي كما ورد في بعض روايات قصة نبي الله لوط وأنه لما جاءته الملائكة عمدت زوجته إلى إخبار المجتمع الكافر بوجود أغراب في ضيافته!.

توفر لرسول الله هذا السكن النفسي مع خديجة بحيث ملأت حياته، ولذا عاش معها حوالي خمس وعشرين سنة ولم يتزوج عليها امرأة أخرى! حتى إذا رحلت خديجة تزوج بثمان نساء، ولم يقمن بأجمعهن مقام خديجة.. حتى لقد أثار ذلك بعض نسائه غيرة، وذكرتها بما لا يليق وأن الله قد أبدله خيرا منها! مما أغضب رسول الله غضبا شديداً، فقال: ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقني الله الولد منها وحرمت من غيرها.

- نقطة أخرى: وهي أن خديجة لم تكن من ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم -نسباً- مثل فاطمة أو الحسن والحسين، ومع ذلك فإنها وصلت إلى ما وصلت إليه من المنزلة والشأن، وما ذلك إلا

لأنها (**آمنت بي**) و(**صدقتني**) و(**واستني**) وهذه كلها أفعال اختيارية أوصلتها إلى ما وصلت إليه. وهذا الباب مفتوح لمن أراد دخوله لينضم بذلك إلى مستوى العظماء.

أبناء وبنات السيدة خديجة

كم كان عدد أولادها (**ذكوراً وإناثاً**)؟ وهل أن زينب وأم كلثوم ورقية كن بناتها أو ربائب لها؟

الجواب: المتفق عليه بين الشيعة والسنة أن أم المؤمنين خديجة عليها السلام قد أنجبت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من البنات فاطمة الزهراء، ومن الولد عبد الله (**الطاهر**) والقاسم.

ولكن اختلفوا في أنها هل أنجبت له من البنات غير فاطمة أم لا؟ وهنا يتفق مؤرخو ومحدثو السنة -تقريباً- على أنها أنجبت له من البنات: زينب ورقية وأم كلثوم.

بينما يوجد لدى مؤرخي ومحدثي الشيعة رأيان:

- فهناك رأي موافق للسنة في أنها أنجبت البنات الثلاث المذكورات، ولعله هو الرأي المشهور.
- وهناك رأي مخالف ينتهي إلى أن البنات المذكورات لم يكن بنات النبي وإنما هن ربائبه.

ويظهر أن أول من ذكر هذا الرأي في كتاب واستدل عليه هو أبو القاسم الكوفي في كتابه الاستغاثة.

وسوف نتعرض – ولو باختصار – إلى هذين الرأيين وأدلة أصحابهما.

◀ أدلة القول بكونهن بنات النبي:

فقد ذهب المشهور إلى أنهن بنات النبي اعتماداً على عدة أمور:

- منها ما هو مشهور بين المؤرخين وأهل الأنساب في هذا الشأن، فلا تكاد تجد من يتحدث عن سيرة الرسول ﷺ وبناته إلا ويذكرهن، فمن ذلك بالإضافة إلى ما ورد في كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ التي كتبها المؤرخون غير الشيعة،[1] فقد ذكر هذا الأمر في كتاب **(تاريخ الأئمة)** لأبي الثلج البغدادي المتوفى حوالي ٣٢٠ هـ، فقال: قال الفريابي حدثني أخي عبد الله بن محمد وكان عالما بأمر أهل البيت عليهم السلام حدثني أبي حدثني ابن سنان عن أبي نصر عن أبي عبد الله عليه السلام، قال ولد لرسول الله ﷺ من خديجة القاسم وعبد الله والطاهر وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة عليها السلام ومن مارية القبطية إبراهيم، فأما رقية فزوجت من عتبة بن أبي لهب فمات عنها وأما زينب فزوجت من أبي العاص بن الربيع فولدت منه ابنة سماها أمامة تزوجها أمير المؤمنين عليه السلام بعد

---

(١) كابن اسحاق في السيرة ٥/ ٢٢٩ والرازي في تفسيره ٢٧/ ١٨٦ والقرطبي كذلك ١٤/ ٢٤٢ وابن سعد في الطبقات ٨/ ٢١٧ وأيضا في الجزء ٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ١٣٠ وابن الأثير في أسد الغابة ١/ ٢٣ وغيرهم..

وفاة فاطمة[1] عليها السلام.

- ومنها بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فقد ذكر الحميري القمي ذلك وأورد روايته عن مسعدة بن صدقة قال: حدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال: ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خديجة: القاسم، والطاهر، وأم كلثوم، ورقية، وفاطمة، وزينب. فتزوج عليٌّ عليه السلام فاطمة عليها السلام، وتزوج أبو العاص بن ربيعة –وهو من بني أمية– زينب، وتزوج عثمان بن عفان أم كلثوم ولم يدخل بها حتى هلكت، وزوجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكانها رقية. ثم ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم –من أم إبراهيم– إبراهيم، وهي مارية القبطية.

وذكر مثله الشيخ الصدوق في الخصال، في موضعين الأول: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ولد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خديجة القاسم والطاهر وهو عبد الله، وأم كلثوم، ورقية، وزينب، وفاطمة. وتزوج علي بن أبي طالب عليه السلام فاطمة عليها السلام، وتزوج أبو العاص بن الربيع –وهو رجل من بني أمية– زينب، وتزوج عثمان بن

(١) تاريخ الأئمة (**المجموعة**) – الكاتب البغدادي– ص ١٥–١٦ وقد ذكر آية الله السيد المرعشي النجفي الذي أشرف على تجميع هذه المجموعة وطبعها، وكتب مقدمة لها أن: هذه مجموعة نفيسة حاوية للزبر والاسفار في مواليد الأئمة الأطهارع ووفياتهم جمعتها بين الدفتين وبعضها لم ينشر بعد رجاء لان يستفيد منها المستفيدون من إخواني الاعلام والأفاضل والمشتغلين ثم ذكر فهرس هذه الكتب والرسائل.

عفان أم كلثوم فماتت ولم يدخل بها، فلما ساروا إلى بدر زوجه رسول الله ﷺ رقية. وولد لرسول الله ﷺ إبراهيم من مارية القبطية وهي أم إبراهيم أم ولد(١).

والثاني: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: دخل رسول الله ﷺ منزله فإذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها وهي تقول: والله يا بنت خديجة ما ترين إلا أن لأمك علينا فضلاً وأي فضل كان لها علينا ما هي إلا كبعضنا، فسمع مقالتها فاطمة فلما رأت فاطمة رسول الله ﷺ بكت، فقال لها: ما يبكيك يا بنت محمد؟ قالت: ذكرت أمي فتنقصتها فبكيت، فغضب رسول الله ﷺ، ثم قال: مَه يا حميراء فإن الله تبارك وتعالى بارك في الولود الودود وإن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهراً وهو عبد الله وهو المطهر، وولدت مني القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب وأنت ممن أعقم الله رحمه فلم تلدي شيئا(٢).

---

(١) الخصال-الشيخ الصدوق-ص ٤٠٤ قال: حدثنا أبي، ومحمد بن الحسن رضي الله عنهما قالا: حدثنا سعد بن-عبد الله، عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير،

(٢) الخصال-الشيخ الصدوق-ص ٤٠٤-٤٠٦ حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رضي الله عنه قال: حدّثنا محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد بن خالد قال: حدثني أبو علي الواسطي، عن عبد الله بن عصمة، عن يحيى بن عبد الله، عن عمرو بن أبي المقدام، عن أبيه، عن الصادق

◄ وهناك بعض الروايات تشير ضمناً إلى هذا الموضوع وتنسب البنات إلى النبي ﷺ، مثلما ورد في حديث (**ألا أدلكم على خير الناس أباً وأماً وجداً وجدةً وعماً وعمةً وخالاً وخالةً: الحسن والحسين خالهما القاسم بن رسول الله وخالتهما زينب بنت رسول الله**[١]..)، ورواية الحسين بن روح في جوابه على سؤال من سأل (**لماذا فضلت فاطمة على سائر بنات النبي**)[٢].

◄ كما أنهم يشيرون هنا إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام في معاتبته للخليفة عثمان، ودعوته إياه إلى انتهاج سبيل صحيح في الاصلاح وأنه أولى من الخليفتين الأول والثاني بهذا، كما ورد في نهج البلاغة: «**وأنت أقرب إلى رسول الله ﷺ وشيجة رحم منهما وقد نلت من صهره ما لم ينالا**»[٣].

---

(١) ذكره الصدوق في الأمالي/ ٥٢٢، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٦٦ وفيه بلفظ (**خالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم بنات رسول الله**)، والخزاز القمي في كفاية الأثر/ ٩٧ والموفق الخوارزمي في المناقب/ ٨٩ وابن عساكر في ترجمة الإمام الحسين/ ١٩٤، والقندوزي في ينابيع المودة ٢/ ٢٢١ والتستري في إحقاق الحق/ ١٣٤ وغيرهم..

(٢) ذكره ابن شهرآشوب في مناقب آل أبي طالب ج ٣-ص ١٠٥ فقال: وسأل بزل (**بديل**) الهروي الحسين بن روح رضي الله عنه فقال: كم بنات رسول الله ﷺ؟ فقال: أربع، فقال: أيتهن أفضل؟ فقال: فاطمة! قال: ولم صارت أفضل وكانت أصغرهن سنا وأقلهن صحبة لرسول الله؟ قال: لخصلتين خصها الله بهما، انها ورثت رسول الله ونسل رسول الله منها، ولم يخصها بذلك إلا بفضل إخلاص عرفه من نيتها.

(٣) نهج البلاغة ٢/ ٦٨

- وفي رواية عن الامام الصادق عليه السلام يستفاد منها هذا المعنى أيضا فعن سماعة قال: سألته عن مناكحتهم والصلاة خلفهم، فقال: هذا أمر شديد لن تستطيعوا ذلك، قد أنكح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلى علي عليه السلام وراءهم[١].
- ما يظهر من بعض أعيان الطائفة الالتزام به والدفاع عنه كأنه أمر مسلم، فمنهم الشيخ المفيد كما في المسائل السروية[٢]، ومنهم السيد المرتضى[٣] في كلامه عن وجه أفضلية السيدة الزهراء عليها السلام على باقي أخواتها، ومنهم الشيخ صاحب الجواهر كما نقله عنه السيلاوي في كتابه الانوار الساطعة قال: وذكر قريباً منه الفقيه والرجالي الكبير ملا علي العلياري في بهجة الآمال في شرح زبدة المقال. وذكر الفقيه الكبير صاحب الجواهر: فقد زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة

(١) وسائل الشيعة (**آل البيت**)-الحر العاملي-ج ٨-ص ٣٠١

(٢) المسائل السروية-الشيخ المفيد-ص ٩٢-٩٥ فقد كان في صدد مناقشة تفضيل عثمان بن عفان لجهة اقترانه ببنات النبي وقال إن ذلك مثلما هو الحال بالنسبة إلى اقتران عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع.. وهذا منه إشارة إلى تعدد البنات.

(٣) كذلك نقله في المناقب ابن شهراشوب فقال: وقال المرتضى رضي الله عنه: التفضيل هو كثرة الثواب بأن يقع إخلاص ويقين ونية صافية ولا يمتنع من أن تكون عليها السلام قد فضلت على أخواتها بذلك، ويعتمد على أنها أفضل نساء العالمين بإجماع الإمامية، وعلى انه قد ظهر من تعظيم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لشأن فاطمة وتخصيصها من بين سائرهن ما ربما لا يحتاج إلى الاستدلال عليه.

علياً عليه السلام وأختيها رقية وأم كلثوم عثمان. وذكر قريبا منه الشيخ الطوسي قدس سره[١].

ونفس ذلك ذهب إليه العلامة الشيخ علي بن يونس العاملي المتوفى سنة ٨٧٧ هـ، فقد ذكر نقاشهم لمسألة تفضيل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالمصاهرة؛ بأنها ليست من خصوصياته بل هو مشترك بها مع غيره، فردهم بأن فاطمة عليها السلام أفضل من باقي بناته وزوجاته[٢].

- ويرى أصحاب هذا الرأي أن طريقة تعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهن تفيد كونهن بناته وإن كانت منزلتهن دون منزلة فاطمة، فطريقة الحديث عن الزهراء وتزويجها كانت من قبل الله تعالى لمكانتها الخاصة وحيث أن النبي لا ينطق عن الهوى فإنه زوج باقي البنات ضمن القواعد العامة لا بشكل خاص وتعيين إلهي.

وأما ما عدا ذلك فإنه كان رفيقاً بهن ويتعامل معهن تعامل الأب مع بناته. فقد أهدر دم هبار بن الأسود الذي وكز زينب ابنته حتى ألقت ما في بطنها. وهكذا تبرأ ممن آذى النبي في ابنتيه رقية وأم كلثوم[٣].

---

(١) الأنوار الساطعة-الشيخ غالب السيلاوي-ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) الصراط المستقيم ١/ ١٧٠ .

(٣) في مصباح المتهجد ٦٢٢ للشيخ الطوسي ذكر أن من ضمن أدعية

فما هي ميزة هذه الفتيات **(لو كن ربائب)** في كل هذه العناية النبوية، علماً بأنه كان للنبي **(ربائب)** متفق عليهم، ولم نلحظ هذا الاهتمام الخاص من النبي بشأنهما لا في تزويجهما ولا في باقي حياتهما.. فإن من الثابت تاريخيا أن أم سلمة لما تزوجها النبي ﷺ كان لديها ولد وهو عمر، وكان لها بنت وهي برّة، فسماها النبي بـ **(زينب)** وهي غير زينب ابنته. وكان لدى أم حبيبة التي تزوجها النبي بنت، هي حبيبة من زوجها السابق عبيد الله بن جحش الذي هاجر مع المسلمين إلى الحبشة لكنه تنصر هناك ومات في الحبشة فتزوجها النبي ولديها بنت هي **(حبيبة)** التي تكون ربيبة النبي.

فلماذا لم نجد أي اهتمام استثنائي من الرسول بهذه الربائب؟ واهتم بشكل خاص بزينب وأم كلثوم ورقية.. إن كن ربائب ولسن بنات؟.

وعلى هذا الأساس فإن عدداً كبيراً من أعيان الطائفة قديماً وحديثاً قد ذهبوا إلى هذا الرأي، وأرسلوه إرسال المسلمات، فمنهم بالإضافة إلى من تقدم ذكرهم:

- ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني **(ت ٣٢٩ هـ)** حيث

شهر رمضان الصلاة على رقية وأم كلثوم بنتي النبي والتبري ممن آذى النبي فيهما، وكذلك في التهذيب. وفي المقنعة للشيخ المفيد نفس ذلك في دعاء كل يوم من أيام شهر رمضان بعنوان كيفية الصلاة على النبي والأئمة من آله، ولكن هنا زينب ورقية. المقنعة المطبوعة في ضمن الينابيع الفقهية.

ذكر في كتاب الكافي باب التاريخ ذلك قائلاً في ترجمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: فولد له منها قبل مبعثه عليه السلام القاسم، ورقية، وزينب، وأم كلثوم، وولد له بعد المبعث الطيب والطاهر وفاطمة عليها السلام [(١)].

وتابعه في ذلك المولى صالح المازندراني **(ت ١٠٨٦ هـ)** حيث أنه في شرحه للكتاب لم يتعقبه بنظر مخالف مما يفيد موافقته إياه[(٢)].

ومنهم الشيخ المفيد **(ت ٤١٣ هـ)**، والشيخ الطوسي **(ت ٤٦٠ هـ)** والسيد المرتضى **(ت ٤٣٦ هـ)** كما سبق.

ومنهم العلامة الطبرسي **(ت ٥٤٨ هـ)** فقد قال في كتابه تاج المواليد: أولاده وأزواجه عليه كان لرسول الله عليه التحية والسلام ولد له سبعة أولاد من خديجة، ابنان وأربع بنات: القاسم وعبد الله وهو الطاهر والطيب، وفاطمة صلوات الله عليها وزينب وأم كلثوم ورقية، وولد له إبراهيم من مارية القبطية[(٣)].

وقد نقل العلامة المجلسي **(ت ١١١١ هـ)** في البحار اختيار ابن شهرآشوب **(ت ٥٨٨ هـ)** كما يلي: مناقب ابن شهرآشوب، أولاده: ولد من خديجة القاسم وعبد الله وهما الطاهر والطيب، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وهي آمنة وفاطمة وهي أم

---

(١) الكافي ١/ ٤٣٩.

(٢) شرح أصول الكافي ٧/ ١٤٤.

(٣) تاج المواليد **(المجموعة)**-الشيخ الطبرسي-ص ٨.

أبيها، ولم يكن له ولد من غيرها إلا إبراهيم من مارية[١].

ومن المعاصرين ننقل كلام عدد ممن صرحوا بهذا المعنى فمنهم:

آية الله السيد محسن الأمين العاملي في ترجمة أم كلثوم بنت رسول الله، أمها خديجة بنت خويلد. وقال في مجمع البحرين: كان لرسول الله ﷺ من خديجة أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن وهن زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم. وقال الطبرسي في إعلام الورى وغيره ان أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ تزوجها عثمان بعد أختها رقية وتوفيت عنده، ومثله عن ربيع الشيعة لابن طاووس.[٢]

ومنهم العلامة السيد هاشم معروف الحسني، كما نقل عنه ذلك الحاج حسين الشاكري في كتابه **(أم المؤمنين الطاهرة)** ذاكراً إياه بعنوان أنه «**انفرد السيد هاشم معروف الحسني بأن أم المؤمنين خديجة أنجبت له ﷺ ستة أولاد ما بين ذكور وإناث وهم القاسم وبه يكنى، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وعبد الله، وفاطمة**»[٣].

---

(١) بحار الأنوار–العلامة المجلسي–ج ٢٢–ص ١٥٢

(٢) أعيان الشيعة ٣/ ٤٨٧ غير أن السيد الأمين رحمه الله في ترجمة رقية بنت رسول الله في ذكر ما هو موجود في المتن هنا، وأيضا ذكر ما قاله أبو القاسم الكوفي من كون رقية وزينب ربائب.. وستأتي الإشارة إليه في أدلة القول الثاني.

(٣) أم المؤمنين خديجة الطاهرة/ ١٠٠

ومنهم آية الله السيد محمد الشيرازي رحمه الله في كتابه أمهات المعصومين حيث قال: إن أولاد الرسول ﷺ كلهم من السيدة خديجة إلا إبراهيم، أما إبراهيم فهو من السيدة مارية القبطية فقد ولد بالمدينة وعاش سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ومات بالمدينة ودفن في البقيع.

فأنجبت السيدة خديجة من الأولاد: القاسم والطيب وقد ماتا بمكة صغيرين وأنجبت من البنات زينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة(١).

ومنهم آية الله الشيخ جعفر السبحاني في كتابه سيد المرسلين حيث قال: وقد أنجبت خديجة لرسول الله ﷺ ستة من الأولاد: اثنين من الذكور أكبرهما القاسم ثم عبد الله اللذان كانا يدعيان بالطاهر والطيب وأربعة من الإناث..

كتب ابن هشام يقول في هذا الصدد: أكبر بناته رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة. فأما الذكور من أولاده ﷺ فماتوا قبل البعثة وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام(٢).

ومنهم العلامة الشيخ محمد هادي اليوسفي، فقد ذكر في سياق الحديث عن الهجرة قوله: أما عليٌّ عليه السلام فإنما حمل معه أمه فاطمة بنت أسد ومعها من بنات الرسول فاطمة وأما سائر بناته:

---

(١) أمهات المعصومين/ ٩٤

(٢) سيد المرسلين ١/ ٢٧٨

فزينب مع زوجها أبي العاص بن الربيع، ورقية مع زوجها عثمان في هجرة الحبشة، وأما أم كلثوم فقد مر أن عكرمة كان قد طلقها ولم يذكر أنها هاجرت إلى الحبشة، ولم يذكر أن علياً عليه السلام حملها مع أختها فاطمة إلى المدينة. ولكن قالوا: إن رسول الله بعث أبا رافع القبطي وزيد بن حارثة الكلبي من المدينة إلى مكة فحملا إليه زوجته سودة بنت زمعة وسائر بناته بل هي أم كلثوم فقط[(١)].

ويطول الأمر لو أريد تتبع كل الأقوال.

وقد ذكر العلامة الشيخ عبد اللطيف البغدادي رحمه الله طريقاً آخر فيما يمكن أن يكون أدلة للمشهور بما خلاصته ما يلي:

إنه يدل على كون تلكم النساء بنات النبي ولسن ربائب:

أولاً: القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ**﴾[(٢)].. فقوله ﴿**وَبَنَاتِكَ**﴾ يدل على تعدد البنات لا أنها واحدة. وهذا ليس من باب ﴿**نِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ**﴾[(٣)].. فقد استعمل الجمع وأريد منه المفرد إجماعا فإن المقام هنا مقام التعظيم دون ذلك المقام.

ويؤيده قول أمير المؤمنين عليه السلام «**وأنا زوج البتول سيدة نساء العالمين، فاطمة التقية النقية، المبرة المهذبة، حبيبة حبيب الله، وخير**

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢/ ٤٣.
(٢) سورة الأحزاب: ٥٩.
(٣) سورة آل عمران: ٦١.

بناته وسلالته». فإن تعبيره بخير بناته يقتضي التعدد.

ثانياً: السنة الشريفة تدل على المطلوب حيث نقل في هذا المجال روايتا الصدوق في الخصال، والحديث المشهور بين الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا أخبركم بخير الناس خالاً وخالةً هذا الحسين بن علي خير الناس خالاً وخير الناس خالةً، خاله القاسم بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخالته زينب بنت محمد**». وفي نص آخر: وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم بنات رسول الله.

ونقل أيضاً ما هو معروف من وصية الزهراء فاطمة للإمام عليٍّ عليه السلام: أن تتزوج بعدي بابنة أختي أمامة فإنها تكون لولدي مثلي فإن الرجال لا بد لهم من النساء.. فإنها نسبتها إلى أختها.

ثالثاً: نقل الاجماع على أنهن بنات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد قال الإجماع -وقد نص عليه ابن عبد البر المالكي في الاستيعاب ج ٤ ص ٢٧٢ - قال ما نصه: وأجمعوا أنها **(أي خديجة)** ولدت له صلى الله عليه وآله وسلم أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن وهن زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم، وأجمعوا أنها ولدت أبنا يسمى القاسم وبه كان يكنى.. ثم نقل عدداً من كلمات العلماء تفيد هذا المعنى، واستشهد بجواب الحسين بن روح السفير الثالث للإمام الحجة عجل الله فرجه، وبتوجيه الشريف المرتضى في أفضلية الزهراء على باقي بنات رسول الله[1].

ونضيف إلى ما سبق، حيث هذا الرأي هو مختارنا ما يلي:

---

(١) فاطمة والمفضلات من النساء/ ٧٠

١) إن المرجع في مثل هذه المسألة هم النسابة، حيث يشكلون في تلك الأزمنة ما تشكله اليوم دوائر الأحوال الشخصية والاحصاء السكاني، وهؤلاء-أعني النسابة-قد نصوا على بنات النبي وأسمائهم، قبل أن تبدأ النقاشات العقدية..

٢) إن الأحاديث عن رسول الله ﷺ، منها ما هو صريح في ذكر البنات، ومنها ما هو بالملازمة، فمن الأول ما نقله عنه المحدثون في الحديث: «**ألا أدلكم على خير الناس أباً وأماً وجداً وجدةً وخالاً وخالةً.. إلى أن يقول: وخالتهما زينب بنت رسول الله**»، ومثله ما نقل في مصادر الامامية خصوصاً.. مثل هذا الحديث الذي ينقل فيه ما جرى بين عائشة زوجة النبي وفاطمة عليها السلام.. وأن رسول الله غضب ثم قال: مه يا حميراء فإن الله تبارك وتعالى بارك في الولود الودود وإن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهراً وهو عبد الله وهو المطهر، وولدت مني القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب.

◀ أدلة القول الثاني:

وأما الرأي الثاني القائل بأنه لم يكن لرسول الله من البنات غير فاطمة الزهراء عليها السلام، وأما البقية (**أم كلثوم ورقية وزينب**) فهن ربائب للنبي ولسن بنات، وكن في حجر السيدة خديجة ولم يكن بناتها أيضا حيث أنها لم تتزوج أحدا قبل النبي ﷺ.

والذي يظهر أن أول من شيّد هذا القول واستدل عليه وصرح به هو أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي[١] في كتابه الاستغاثة، حيث أنه رد على القول بتزويج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنتيه من عثمان بن عفان حيث أن بعض متكلمي أهل السنة يعتبرون ذلك ميزة له وفضيلة تنافس فضيلة الإمام علي عليه السلام في تزويجه فاطمة عليها السلام، فقد رد أصل الفكرة وذلك بتشكيل مقدمات، خلاصتها ما يلي:

١) إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان قد زوج ابنتيه من أبي العاص بن الربيع وعتبة بن أبي لهب لا يخلو إما أنه كان على دين قومه في الجاهلية أو كان مخالفاً لهم.

فإن قال قائل إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان على دين الجاهلية كفر بالله ورسوله لأن الله تعالى يقول في الإمامة حين قال في قصة

---

(١) ذكره النجاشي في كتاب الرجال ص ٢٦٥ فقال: علي بن أحمد أبو القاسم الكوفي، رجل من أهل الكوفة كان يقول: إنه من آل أبي طالب، وغلا في اخر أمره وفسد مذهبه وصنف كتبا كثيرة أكثرها على الفساد. والشيخ الطوسي أيضا في الفهرست فقال: علي بن أحمد الكوفي، يكنى أبا القاسم، كان اماميا مستقيم الطريقة، وصنف كتبا كثيرة سديدة، منها كتاب الأوصياء، وكتاب في الفقه على ترتيب كتاب المزني، ثم خلط وأظهر مذهب المخمسة، وصنف كتبا في الغلو والتخليط، وله مقالة تنسب إليه.. انتهى.

والمخمس من الغلاة هم الذين يقولون إن سلمان الفارسي والمقداد وأبا ذر وعمار وعمر بن أمية الضمري هم الخمسة الموكلون بمصالح العالم من قبل الرب!

إبراهيم عليه السلام ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾(١) ومن كان كافراً كان أكبر الظالمين لقوله تعالى ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾(٢) ومن كان كذلك كان عابداً للأصنام ومن كان عابداً للأصنام كان محالاً أن يتخذه الله عز ذكره نبياً أو إماماً بحكم هذا الوجه.

ولَمّا فسد ذلك ثبت أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان في زمن الجاهلية على دين يرتضيه الله منه غير دين الجاهلية.

٢) ولما وجب ما وصفناه وثبتت حجته كان محالاً أن يزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابنتيه من كافرين من غير ضرورة دعت إلى ذلك وهو مخالف لهم في دينهم عارف بكفرهم وإلحادهم.

٣) ولما فسد هذا بطل أن تكونا ابنتيه وصح لنا فيهما ما رواه مشايخنا من أهل العلم عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وذلك أن الرواية صحت عندنا عنهم أنه كانت لخديجة بنت خويلد من أمها أخت يقال لها هالة قد تزوجها رجل من بني مخزوم فولدت بنتاً اسمها هالة ثم خلف عليها بعد أبي هالة رجل من تميم يقال له أبو هند، فأولدها ابناً كان يسمى هنداً بن أبي هند وابنتين فكانتا هاتان الابنتان منسوبتين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زينب ورقية من امرأة أخرى قد ماتت.

---

(١) سورة البقرة: ١٢٤

(٢) سورة لقمان: ١٣

وكان من سنة العرب في الجاهلية أن من يربي يتيماً ينسب ذلك اليتيم إليه، وإذا كانت كذلك فلم يستحل لمن يربيها تزويجها لأنها كانت عندهم بزعمهم بنت المربي لها فلما ربى رسول الله ﷺ وخديجة هاتين الطفلتين الابنتين ابنتي أبي هند زوج أخت خديجة نسبتا إلى رسول الله ﷺ وخديجة.

إن رقية وزينب زوجتي عثمان لم يكونا ابنتي رسول الله ﷺ ولا ولد خديجة زوجة رسول الله ﷺ، وإنما دخلت الشبهة على العوام فيهما لقلة معرفتهم بالأنساب وفهمهم بالأسباب[1].

ومن بعده يبدو أن هذا الرأي لم يأخذ مجالاً واسعا في النقاش التاريخي وإنما اقتصر في الغالب على كونه احتمالاً في النقاشات العقدية والخلافية التي تعنى بقضايا الفضائل والمناقب غير أنه قد أُكد عليه في الفترات الأخيرة، وقام العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي بتأليف كتاب خاص في هذا المجال سماه (**بنات النبي أم ربائبه؟**). ويمكن لنا أن نشير إلى بعض أدلته في هذا المختصر:

- فإنه في البداية نقل كلام الشيخ المفيد الذي ذكر كونهن بنات النبي وناقشه ضمن مقدمات عن احترام منزلة المفيد العلمية لكن لا يعني ذلك أنه لا يشتبه ولا يخطئ.
- ثم نقل أقوالا عن طائفة من المؤرخين بأن بنات النبي قد ولدن في الإسلام ورتب على ذلك أنه كيف يجتمع هذا مع زواجهن

(١) الاستغاثة/ ١٠٨

من ابني أبي لهب فلما جاء الإسلام طلقاهما فتزوجت رقية من عثمان؟.

- كذلك نقل عن الجرجاني وغيره بأن رقية كانت صغرى بنات النبي وأنها وأم كلثوم أصغر من فاطمة،[1] فإذا كانت فاطمة ولدت بعد البعثة بخمس سنوات وولدت أخواتها بعدها فكيف يكن قد تزوجن في الجاهلية بابني أبي لهب ثم بعثمان؟.
- ثم نقل عن بعضهم ما قيل في تاريخ زواج النبي بخديجة واختار أنه تزوجها قبل البعثة بثلاث سنين، فإذا كان كذلك فكيف يجتمع هذا بأنها أنجبت رقية وأم كلثوم وأنهما تزوجتا في الجاهلية[2]؟.
- وكذلك فقد قال بأننا لا نجد في هجرة الفواطم مع علي عليه السلام ذِكراَ لأم كلثوم فأين كانت[3]؟.

ثم عطف الكلام على زينب زوجة أبي العاص بن الربيع ونقل

(١) الصحيح أن الصديقة فاطمة هي صغرى بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك في جواب الحسين بن روح.

(٢) هناك أقوال أخر في تاريخ زواجهما عليهما السلام يذهب بعضها إلى أنه كان قبل عشرين سنة قبل البعثة وبعضها إلى ست عشرة أو خمس عشرة سنة، ولعل ما هو مشهور من كونه قد بعث على الأربعين من العمر وأنه تزوج خديجة وهو في الخامسة والعشرين يؤيد أن الزواج كان قبل خمس عشرة سنة من البعثة كما ذكره ابن اسحاق في السيرة.

(٣) تقدم في صفحات سابقة ما عن الشيخ اليوسفي الغروي في موسوعة التاريخ من خبر هجرة أم كلثوم فراجع.

من سيرة مغلطاي أن خديجة قد ولدت لزوجها الأول النباش بن زرارة هند والحرث وزينب.. وقرر أن ذلك اعتراف بكونها ربيبة النبي ﷺ، مع أنه يلتزم بعدم زواج خديجة قبل النبي بأحد كما أشار إلى ذلك.

- وأخيرا نقل كلام أبي القاسم الكوفي في الاستغاثة، وعطف في بحثه أخيراً على تحقيق موضوع زواج خديجة وأنها لم تتزوج أحدًا قبل النبي.. وهو موضوع لا يرتبط ببحثنا هنا.

ونقل عن رسول الله ﷺ في فصل آخر قوله لعلي عليه السلام «**يا علي، أوتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحد ولا أنا: أوتيت صهراً مثلي، ولم أوت أنا مثلي..**» ورتب على ذلك أنه لو كان عثمان أو العاص بن أبي الربيع أصهاراً للنبي لما كانت تلك ميزة لعلي عليه السلام.

كما نقل كلاماً لعبد الله بن عمر في جوابه لبعض الخوارج الذين سألوه عن عثمان فقال: أما عثمان، فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن تعفوا عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، وأشار بيده، فقال: هذا بيته حيث ترون.

فلو كان عثمان صهر النبي لأشار إلى ذلك.

- ووصل إلى نتيجة في الأخير وهي: إذا كنا نريد أن نكون أكثر دقة في حكمنا على الروايات التاريخية، فإننا لابد ان نفترض- على تقدير التسليم بولادة بنات النبي ﷺ من خديجة-: أنهن قد مُتن وهن صغار، ولم يتزوجن من أحد.

فإن كان عثمان قد تزوج بمن اسمها رقية، وبعد موتها تزوج بمن اسمها أم كلثوم فلابد أن يكنّ لسن بنات النبي ﷺ، وإن تشابهت الأسماء.

◄ الرأي المختار:

أقول: بعد هذا التطواف–على اختصاره–في نقل أدلة الطرفين، يبدو للناظر أن ما أفاده المشهور من الرأي هو الأحرى بالقبول وأننا وفاقاً لما قاله الكليني ورواه الصدوق والتزمه المفيد والطبرسي وابن شهرآشوب والمجلسي والمازندراني من المتقدمين والأمين العاملي وهاشم معروف الحسني والشيرازي والسبحاني من المتأخرين نعتقد بأنهن كن بنات للنبي ﷺ [(١)].

نعم ينبغي أن تسجل هنا نقطة وهي: أنه ليس من الصحيح توظيف هذا الزواج في الموضوع العقدي بحيث يكون بمجرده مفيداً فضيلة ومنقبة للزوج.. وذلك أننا نعتقد أن النبي ﷺ –في غير موضوع الزهراء–لو جاء إليه أي مسلم من المسلمين خاطباً لزوجه، باعتبار أن المسلم كفو المسلمة، وأنه لا يمكن للنبي ﷺ الذي جاء ليطبق هذه الأحكام على الناس ألّا يطبقها على نفسه.

غير أن موضوع الزهراء مختلف جداً، فتزويجها جاء من السماء، وبشخص خاص وكان من المقرر أن يكون امتداد النبي ذرية ورسالة في هذه الأسرة.

---

(١) هذا بالرغم من أننا في كتاب نساء حول أهل البيت ربما توقفنا في هذا الرأي، ولكن استقر الأمر هنا عليه.

ونفس شخصية فاطمة كانت غير باقي أخواتها، ولهذا فقد كان النبي ﷺ يلهج بذكرها ويعرّف الناس منزلتها، ولم يصنع ذلك بباقي البنات ولا الأولاد، فإنه أمين الله الذي لا ينطق عن العاطفة ولا تحركه -في هذا الجانب- مجرد مشاعر الأبوة وإنما ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1] فلم يوحَ إليه في باقي البنات شيء استثنائي ولا الأولاد بينما كان ذلك بالنسبة لفاطمة الزهراء عليها السلام.

يبدو أن الذي جعل صاحب الاستغاثة يطرح فكرته تلك وهي إنكار بنوة هذه البنات، هو دخول المسألة على خط صناعة الفضائل، وهذا ما أشار إليه العلامة العاملي أيضاً في نهاية بحثه حيث رأى أن هناك محاولة لتجريد أمير المؤمنين من فضيلة الصهر ومنقبته وصناعة ذلك لغيره، فإذا كان لعلي نور فغيره **(ذو نورين)**!.

وهذا الكلام يمكن أن يكون صحيحاً، ولكن المناسب هنا ألّا يتم إنكار واقعة تاريخية لأجل أن الغير قد استفاد منها استفادة غير صحيحة، وإنما الصحيح هو أن يقال -مثلما فعل الشيخ المفيد- أن مجرد مصاهرة النبي -في غير فاطمة- لا يوجب منقبة وفضيلة استثنائية تماماً، فلم يكن هناك اختيار من الله تعالى بل ولا من النبي ﷺ، وإنما هو ضمن القواعد العامة في النكاح، حيث لا يشترط فيه سوى ظاهر الإسلام.

وربما يقال: إن رأي المشهور يعني إثبات فضيلة ومنقبة

---

(١) سورة النجم: ٤.

للخليفة الثالث، فلماذا الإصرار عليه؟.

ونقول: إن الربط بين الأمرين غير صحيح كما تقدم، ثم إن الموضوع التاريخي لا ينبغي في تحقيقه أن يُنطلق من منطلق عقدي وفكري لإثباته أو نفيه، وإنما من الوقائع التاريخية.. وأيضاً يمكن أن يقال: إن نفي بنوة بنات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضا محذور ينبغي الاجتناب عنه.

خديجة في الروايات

◄ فضلى نساء أهل الأرض:

يمكن معرفة فضلى نساء أهل الأرض، من خلال معرفة فضلى النساء في الجنة، وذلك أن من يكون الأفضل في الجنة، حيث ليس فيها محاباة ولا تقديم خاطئ، فإنه الأفضل في هذه الدنيا بلا ريب.

ولعل ما جاء في أحاديث رسول الله من تحديد أناس في الجنة مثل قوله في خديجة وفاطمة ومريم وآسية، أو كون الحسنين سيدي شباب أهل الجنة وما شابه ذلك، فيه إشارة إلى تقدم هؤلاء الأشخاص في هذه الدنيا.

وهنا ينبغي الإشارة إلى أن هذه الأحاديث ليس المقصود منها كيل المدح والثناء المجرد للتباهي والفخر، وإنما لكي يوجه من يسمع هذه الأحاديث أو يراها إلى انتهاج منهجهم، سواء كانوا على قيد الحياة ومعهم في الزمان أو سيأتون بعدهم، حتى يميزوا الفئة الأفضل منهجاً والأقرب إلى رسول الله ﷺ طريقة من غيرها.

وضمن هذا الاتجاه فقد وردت روايات كثيرة عن النبي ﷺ، في شأن السيدة الصديقة خديجة بنت خويلد، منها:

ما روي عن ابن عباس أنه قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض أربعة خطوط، ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون[١].

وفي الحديث أن جبرئيل قد قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج: حاجتي أن تقرأ على خديجة من الله ومني السلام[٢].

◄ زوجة النبي الأولى في الجنة:

ليس معلوماً أن كل نساء النبي في الدنيا هن نساؤه في الجنة، وذلك لأن معادلة الزواج في الدنيا تختلف عن معادلتها في الجنة لا ريب. ففي الدنيا لا يعدو الأمر عن كفاءة الاسلام، فـ (**المسلم كفو المسلمة**). غير أن الأمر يختلف في الجنة لكي تضاف إلى ذلك وجود مرتبة من الفضل تكون فيها المرأة مؤهلة بحسب تلك المرتبة للزواج بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أشرنا في صفحات سابقة إلى ما نقل عن عمار بن ياسر في هذا الشأن وقلنا بأنه لو تم من حيث السند فإنه لا يكون حجة إذ أن عمار لم ينسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو إلى المعصوم. بل الحديث الموجود يشير إلى أن زوجات النبي هن بعد خديجة: آسية ومريم وكلثوم. وكأن ما هو موجود في الحديث يشير إلى أن الأصل هي خديجة.

---

(١) بحار الأنوار–العلامة المجلسي– ج ٢٩– ص ٣٤٥

(٢) مستدرك سفينة البحار – الشيخ علي النمازي الشاهرودي – ج ٣– ص ٣٢.

فقد روى الشيخ الصدوق في الفقيه فقال: دخل رسول الله ﷺ على خديجة عليها السلام وهي لما بها[١]، فقال لها: بالرغم منا ما نرى بك يا خديجة، فإذا قدمت على ضرائرك فأقرئيهن السلام، فقالت: من هن يا رسول الله؟ فقال: مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى عليه السلام، وآسية امرأة فرعون، فقالت: بالرفاء[٢]يا رسول الله[٣].

ويلاحظ هنا مقدار السمو الأخلاقي لدى السيدة الطاهرة خديجة في تمنيها السعادة والألفة للرسول مع باقي النساء مع أن هذا على خلاف الحالة العادية بين المرأة وشريكاتها-ضرائرها-.. فقد وجدنا بعض نسائه ﷺ يغِرن إلى حد تآمر بعضهن على بعض، وكسر بعضهن آنية البعض.

كما يلاحظ مقدار المحبة والحنان الذي يمتلكه النبي ﷺ تجاه هذه السيدة حيث يتألم بعمق قائلاً: بالرغم منا ما نرى بك يا خديجة.

---

(١) أي اشتد بها المرض وهي تحتضر.

(٢) دعاء من قبلها للنبي بحصول الألفة بينه وبين زوجاته الأخريات المذكورات.

(٣) نقله ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧٠/ ١١٩ وابن كثير في التفسير ولكنه وصفه بأنه ضعيف!٤/ ٤١٦ وقال في البداية والنهاية إنه وبعض الأحاديث الأخرى في فضل خديجة في أسانيدها نظر! فهل ذلك بسبب مخالفة الحديث لبعض ما يعتقده ابن كثير؟.

◄ خديجة للنبي: بيتي بيتك وأنا جاريتك!

ولما اختارت رسول الله ﷺ زوجاً وكانت المبادرة في ذلك، وجاء النبي ﷺ إلى بيتها معه أعمامه خاطبين خديجة وخطب أبو طالب خطبته المعروفة، وتم ما جاؤوا من أجله، قام ﷺ فلما أراد أن يذهب مع أبي طالب، قالت خديجة: إلى بيتك، فبيتي بيتك، وأنا جاريتك[١].

(١) (المصدر السابق

ثالث الموحدين على وجه الأرض

◄ عصر النبي ﷺ:

إذا كانت السيدة خديجة أول نساء النبي وأعظمهم مرتبةً وقدراً وشرفاً، وأول نسائه في الجنة، وثانية النساء الفضليات في الجنة مقاماً، فهي ثالثة الموحدين على وجه الأرض بعد النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب.. بل كانت معهما وليس هناك أحد يعبد الله غيرهم على الطريقة الصحيحة.

فقد روى يحيى بن عفيف عن أبيه قال: كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بمكة قبل أن يظهر أمر النبي ﷺ، فجاء شاب فنظر إلى السماء حين تحلقت الشمس، ثم استقبل الكعبة فقام يصلي، ثم جاء غلام فقام عن يمينه، ثم جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، ثم رفع الشاب فرفعا، ثم سجد الشاب فسجدا.

فقلت: يا عباس، أمر عظيم!.

فقال العباس: أمر عظيم.

أتدري من هذا الشاب؟ هذا محمد بن عبد الله –ابن أخي –

أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي بن أبي طالب –ابن أخي –

أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد.

إن ابن أخي هذا حدثني أنّ ربه –رب السماوات والأرض– أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما على ظهر الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة[1].

وقد نقل الحادثة أكثر أرباب الجوامع الحديثية، والعلماء في كتبهم، مع شيء من التفصيل أو الاجمال، فقد نقل الشريف المرتضى الحادثة هكذا عن عفيف، قال:

إن أول شيء علمته من أمر رسول الله، أننا قدمنا مكة فأرشدونا إلى العباس بن عبد المطلب فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم، فبينا نحن جلوس إذ أقبل رجل من باب الصفا عليه ثوبان أبيضان على يمينه غلام مراهق أو محتلم تتبعه امرأة قد سترت محاسنها حتى قصدوا الحجر فاستلمه والغلام والمرأة معه، ثم طاف بالبيت سبعاً والغلام والمرأة يطوفان معه، ثم استقبل الكعبة وقام فرفع يديه وكبر وقام الغلام على يمينه وكبر وقامت المرأة خلفهما فرفعت يديها وكبرت فأطال الرجل القنوت، ثم ركع فركع الغلام والمرأة معه، ثم رفع رأسه فأطال القنوت ثم سجد وهما يصنعان ما يصنع.

---

(١) الإرشاد–الشيخ المفيد–ج ١–ص ٢٩–٣٠.

فلما رأينا شيئاً ننكره ولا نعرفه بمكة أقبلنا على العباس، فقلنا: يا أبا الفضل إن هذا الدين ما كنا نعرفه فقال: أجل والله ما تعرفون هذا، قلنا: ما تعرفه؟ قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله وهذا علي بن أبي طالب وهذه المرأة خديجة بنت خويلد والله ما على وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة[١].

◀ تهجرها نساء قريش وتحضرها نساء الجنة:

عن المفضل بن عمر، قال: قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام: كيف كانت ولادة فاطمة عليها السلام؟ قال: نعم، إن خديجة رضوان الله عليها لما تزوج بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هجرتها نسوة مكة، فكن لا يدخلن عليها، ولا يسلمن عليها، ولا يتركن امرأة تدخل عليها، فاستوحشت خديجة من ذلك. فلما حملت بفاطمة، وكانت خديجة تغتم وتحزن إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكانت فاطمة تحدثها من بطنها، وتصبرها، وكان حزن خديجة وحذرها على رسول الله.

وكانت خديجة تكتم ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدخل يوماً، فسمع خديجة تحدث فاطمة، فقال لها: يا خديجة، من يحدثك؟! قالت: الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسني.

فقال لها: يا خديجة، هذا جبرئيل يبشرني بأنها أنثى، وأنها النسمة الطاهرة الميمونة، وأن الله تعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة في الأمة، ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد

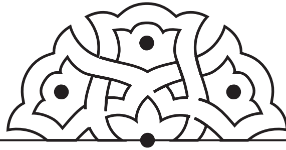
---

(١) الفصول المختارة -الشريف المرتضى- ص ٢٧٣-٢٧٤.

انقضاء وحيه. فلم تزل خديجة على ذلك إلى أن حضرت ولادتها، فوجهت إلى نساء قريش وبني هاشم ليلين منها ما تلي النساء من النساء. فأرسلن إليها بأنك عصيتنا، ولم تقبلي قولنا، وتزوجت محمداً يتيم أبي طالب، فقيراً لا مال له، فلسنا نجيئك، ولا نلي من أمرك شيئا، فاغتمت خديجة لذلك.

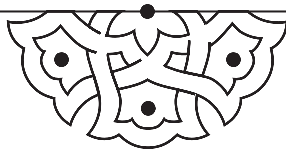
فاغتمت خديجة عليها السلام لذلك، فبينا هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة سمر طوال كأنهن من نساء بني هاشم، ففزعت منهن لما رأتهن، فقالت إحداهن: لا تحزني يا خديجة فأرسلنا ربك إليك، ونحن أخواتك، أنا سارة، وهذه آسية بنت مزاحم وهي رفيقتك في الجنة، وهذه مريم بنت عمران، وهذه كلثوم أخت موسى بن عمران، بعثنا الله إليك لنلي منك ما تلي النساء، فجلست واحدة عن يمينها وأخرى عن يسارها والثالثة بين يديها والرابعة خلفها، فوضعت فاطمة طاهرة مطهرة[١].

(١) دلائل الامامة –محمد بن جرير الطبري– ص ٧٧.



أبو طالب

عمُّ النبي ووالد الوصيّ



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه مقالات ثلاث حول أبي طالب بين الأولى والتي نشرت في كتاب رجال حول أهل البيت عليهم السلام، وبين الثانية والثالثة واللتين لم تنشرا حتى الآن ما يقرب من ٢٨ سنة، ولا يزال نفس الهمِّ والهاجس، ولا يزال نفس الخط الذي كان لقرون يبث في الناس فكرة (**كفر**) أبي طالب عليه السلام، يجهد من أجل إقناع الأمة بباطله، مع أنه بحسب الظاهر لا ينفعهم إثبات كفره شيئاً!

وبنفس المقدار الذي يجهد أولئك فيه أنفسهم في ذلك الاتجاه، يسعى شيعة علي بن أبي طالب بل ومحبوه من غير شيعة أهل البيت لبيان مواضع العظمة والتأسي والاقتداء بالتالي في حياة بطل الصحابة وشيخهم وحامي الدعوة والسابق إلى تصديق الرسول أبي الوصي وعم النبي، ونسأل الله أن يعطي كلاً على جهده، وأن يحشره مع من يحب فهذه دعوة إنصاف، إننا في نفس الوقت الذي نسأل الله لنا أن نحشر بجوار علي وأبيه أبي طالب، نسأل الله لأولئك أن يحشروا في صف أعداء أبي طالب وابنه.

أقدمها مقرونة بمقالات كتبت عن الصدِّيقة الكاملة خديجة بنت خويلد، جمعهما كون هاتين الشخصيتين شكلتا معا حصن الاسلام الحامي في أول تشكله وبنائه وأوان ضعفه، فإنه إذا كان ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا**﴾ وإن كان ﴿**وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[1].. هذه الميزة الزمنية جعلت المنفقين والمقاتلين قبل الفتح أفضل وأعظم درجة، مع أن الدين في ذلك الوقت-قبل الفتح-بأي معنى من المعاني التي قيلت فيه، كان قد قام على سوقه وبنى له دولة وجمع المسلمين فيها، وانتصر على المجتمعات المحلية القريبة من قريش واليهود، وأصبح مهاباً ومرهوب الجانب، ومع ذلك فهو بالقياس إلى ما بعد الفتح كان أضعف!

فكيف إذا كانت المرحلة الزمنية هي التي عاش فيها هذان المؤمنان والركنان العظيمان للدين؟! هي بداية البعثة وشهدا السنوات العشر الأولى التي كان فيها الاسلام ضعيفاً والمسلمون مطاردين والرسول المصطفى محل أذى المشركين؟ هنا يكون الانفاق بأضعافه المضاعفة، وتكون الكلمة المناصرة سيفاً ماضيًا، والاحتضان والدفاع معركة فاصلة، وهذا ما قام به أبو طالب بن عبد المطلب وخديجة بنت خويلد عليهما السلام.

مع ملاحظة هذه الظروف من جهة، وملاحظة جهود أبي طالب نرى التوصيف الذي قدمه أهل البيت عليهم السلام عن أبي طالب

---

(١) سورة الحديد: ١٠

بأنه مثل أهل الكهف أوتي أجره مرتين أو أنه لو شفع في كل مذنب على وجه الأرض لشفعه الله فيهم، أو أن نور أبي طالب يوم القيامة يطفئ أنوار الخلق إلا خمسة أنوار.. نجد هذا التوصيف هو الطبيعي وأنه لا محل فيه لأي مبالغة أو تزيّدٍ.

إن كأس الماء الذي يعطى لمن يكاد يموت عطشاً، قد لا يختلف في كميته عن الكأس الذي يشربه الشخص المرتوي، ولكن قيمته الحقيقية تعني في الأول إنقاذ حياة إنسان، بينما في الثاني هو تبرُّد.

ربما أنفق مسلمون بعد الفتح أو بعد الهجرة إلى المدينة كما أنفقت خديجة-من الناحية الكمية والعددية-لكن المرحلة الزمنية مختلفة تماماً وهذا ما لعلنا نستفيده مما روي عن النبي ﷺ من تركيزه على كلمة **(حين)** أنفقت وأعطت فقال: آمنت بي حين كفر بي الناس وصدقتني حين كذبني الناس وواستني بمالها حين منعني الناس.. وقد مر حديث في شان خديجة حول هذا.

ودور أبي طالب هو هكذا فهو مرتبط بزمان كان زمان ضعف الدين وبداية التأسيس.

فلقد قال كثير من الشعراء قصائد تعبر عن الحماسة والشجاعة بعد كل انتصار يحرزه المسلمون، ولكن أيّا منها لم تكن في **(حين)** استثنائي- فلم تكن تساوي-ربما بيتًا واحدًا من قصيدة قالها، كالبيت الذي قاله:

كذبتـم وبيت الله يبـزى محمد ولمـا نطاعـن دونـه ونناضـل

وبين يديكما أخي القارئ وأختي القارئة هذه المقالات، هي لا تفي بعشر معشار حق أبي طالب فضلاً عن حق ابنه أمير المؤمنين وسائر أبنائه فهو أبو الأئمة المعصومين عليهم السلام جميعًا. لكنها جهد المقل، وعطاء الضعيف، ومصداق قوله تعالى ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾[1]. أسأل الله سبحانه أن يحشرنا معه ومع أبنائه.

فوزي بن المرحوم محمد تقي آل سيف
تاروت القطيف
١٣/ ٥/ ١٤٤٢ هـ

---

(١) سورة التغابن:١٦

عمران بن عبد المطلب[1]

العمر ٨٥ سنة توفي بعد عشر سنوات من بعثة النبي ﷺ

مرّ الشتاء دون أن ترسل السماء قطرة من غيثها، وأجدبت الأرض فلا واحة إلاّ وأكل الجفاف رونقها وبهاءها، وهامت الدواب تبحث عن مرعى دون جدوى، وتوقع القرشيون الهلاك، فإن انتهى الشتاء على هذه الحال، فلا ضرع ولا زرع.

وجاؤوا إلى شيخ الأبطح..

- يا أبا طالب.. أقحط الوادي، وأجدب العيال فهلم واستسق.

كان من عادة قريش إذا أقحطوا توسلوا ببني هاشم، وخرج هذه المرة أبو طالب «**ومعه غلام كأنه شمس تجلّت عنه سحابة قتماء وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بإصبعه الغلام، وما في السماء قزعة–أي قطعة سحاب–فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا وأغدق، واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب البادي والنادي...**[2]».

(١) عمران: (**عبد مناف**) بن عبد المطلب: (**أبو طالب**).

(٢) الغدير ٧/ ٣٤٦

كان ذلك للمرة الثانية في عرض أبي طالب لهذا الغلام ذي الشأن الكبير، وكان أبو طالب الذي سمع من أبيه عبد المطلب أنه سيولد من نسله نبي من أنبياء الله العظام وأوصى بنيه بنصره يعلم أن هذا الغلام ابن عبد الله أخيه هو النبي المنتظر، ولكنه كان يريد تعريف قريش به من خلال كراماته ومناقبه..

ها هو الركب المغادر إلى الشام للتجارة في رحلته السنوية على وشك الانطلاق، وفيه أبو طالب، «**ومحمد**» ابن أخيه آخذ بزمام ناقته يطلب منه أن يرافقه: يا عم إلى من تكلني لا أب لي ولا أم لي؟! فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً.

فخرج به معه فلما نزل الركب «**بصرى**» من أرض الشام وبها راهب يقال له (**بحيرا**) في صومعة له وكان أعلم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة، راهب إليه يصير علمهم من كتاب فيهم -كما يزعمونه- يتوارثونه كائناً عن كائن فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا وكانوا كثيراً ما يمرون عليه قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يتعرض لهم حتى إذا كان ذلك العام نزلوا به قريباً من صومعته فصنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته من الركب حين أقبلوا، وغمامة تظلّه صلى الله عليه وآله وسلم من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظلّ شجرة قريباً منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت -يعني تهدلت- أغصانها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى استظل تحتها فلما رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته

وقد أمر أن يصنع لهم ذلك الطعام فصنع، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وحرّكم وعبدكم، فقال له رجل منهم: يا بحيرا إن لك اليوم لشأناً ما كنت تصنع هذا فيما مضى وقد كنا نمر بك كثيرًا فما شأنك اليوم؟!

قال بحيرا: صدقت قد كان ما تقولون ولكنكم ضيوف فأحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً تأكلون منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرفها وهي موجودة عنده، فقال:

يا معشر قريش لا يتخلف أحد منكم عن طعامي هذا. فقالوا: ما تخلف عنك أحد ينبغي أن يأتيك إلاّ غلام هو حدث القوم سناً تخلف في رحالهم.

قال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجل من قريش: واللات والعزى إن لهذا اليوم نبأ، أيليق أن يتخلف ابن عبد الله عن الطعام من بيننا؟! ثم قام إليه فاحتضنه ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده في صفته حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا قام بحيرا فقال له: يا غلام أسألك باللات والعزى إلاّ أخبرتني مما أسألك عنه.

فقال رسول الله ﷺ: لا تسألني باللات والعزى شيئاً قط.

قال بحيرا: فبالله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه..

قال له ﷺ: سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من نومه وهيئته وأموره ورسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي هي عنده.

كل ذلك وأبو طالب يرقب الموقف.. حيث أنشأ يقول:

أن ابـن آمنـة النبـي محمـد عنـ دي يفـوق منـازل الأولاد

إلى آخر أبياته...

وينزل الأمين (**جبرئيل**) على رسول الله ﷺ، وهو في غار (**حراء**) متوجاً بذلك سلسلة اخبارات وأصوات كان يسمعها الرسول ﷺ سابقاً و(**يبعث**) إلى الناس كافّة لإخراجهم من عبادة العباد والأحجار إلى عبادة الله جلّ وعلا.

ويعرف الرسول ﷺ ماذا تعني الدعوة الجديدة بالنسبة لقريش؟ إنها تعني النسف الكامل لكل ما بنوه من مجد باطل، وعبادة زائفة، وتسلطوا على سائر القبائل مستفيدين من وجودهم قرب بيت الله الحرام، ولذلك فقد كان بحاجة إلى قلب حان، وذراع قوية، يدفئه الأول وتحميه الثانية ويأتي إلى عمه العباس بن عبد المطلب:

- إن الله قد أمرني بإظهار أمري وقد أنبأني فما عندك؟! قال الرسول لعمّه الذي أجابه:
- يا ابن أخي إن قريشاً أشد الناس حسداً لولد أبيك، وإن كانت هذه الخصلة كانت الطامة الطّماء والداهية العظيمة ورمينا عن قوس واحد وانتسفونا نسفاً، ولكن قرّب إلى عمّك أبي طالب فإنه كان أكبر أعمامك، فإنه إن لا ينصرك، لا يخذلك ولا يُسلمك.

وهكذا لم يجد الرسول ﷺ في عمه العباس قدرة الحماية والتصدي للدفاع عن دعوته، فاتجه ﷺ مع العباس إلى أبي طالب، فلما رآهما قال: إنّ لكما تظنةً وخبراً ما جاء بكما في هذا الوقت؟! فعرّفه العباس ما جرى، فنظر أبو طالب إلى النبي ﷺ وقال له:

- اخرج يا ابن أبي فأنك الرفيع كعباً والمنيع حزباً والأعلى أباً... والله لا يسلقك لسان إلاّ سلقته ألسن شداد واجتذبته سيوف حداد، والله لتذلنّ لك العرب ذلّ البُهم لحاضنها، ولقد كان أبي يقرأ الكتاب جميعاً ولقد قال: إن من صلبي لنبياً لوددت أني أدركت ذلك الزمان فآمنت به فمن أدركه من ولدي فليؤمن به[١].

ووجد أبو طالب ما كان يبحث عنه، ذلك أنه وآباءه وهم يدينون بالحنيفية الإبراهيمية كانوا يقرؤون الكتب ويتوارثون

---

(١) الغدير ٧/ ٣٤٨ عن نهاية الطلب والسؤول في مناقب آل الرسول.

العلم عن النبي المنتظر الذي ستذلّ له العرب، ويتواصون بالإيمان به والفداء في نصرته إن أدركوه، وهكذا يمرّ جيل وآخر حتى كان هذا اللقاء، وأكّد لأبي طالب صحة ما قد توسّمه في ابن أخيه...

ولكن...

إنه يقف أمام منعطف خطر، وعليه أن يستخدم أقصى ما يملكه من ذكاء، بحيث يخفي عقيدته وإيمانه لكي يستطيع أن يبقى في موقع (**شيخ الأبطح**) وسيد قريش.

ومن خلال ذلك يقوم بحماية الرسول والمؤمنين به دون أن يكون موقع التهمة، ويحتاج من يمارس هذا الدور إلى نفس صلبة وعقيدة راسخة تماماً كمؤمن آل فرعون، وكأهل الكهف الذين «**أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم وأن أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر الشرك فآتاه الله أجره مرتين**» كما قال الإمام الصادق عليه السلام.

ومارس أبو طالب هذا الدور بكل دقة واتقان.. ولو كان قد أعلن إيمانه منذ البدء لم يكن يستطيع ذلك.

لقد ألقي عليه هذا القول الثقيل والمسؤولية الكبرى، في حفظ صاحب الرسالة، خصوصاً وأن قريشاً التي لم تشهد تحدّياً كهذا كانت قد عقدت العزم الأكيد على تصفية وجود النبي واغتياله، وكما عقدت قريش عزمها على قتل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقد عقد أبو طالب ميثاقاً مع الله أن يدفع عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فادياً في ذلك نفسه

وأولاده، قائلاً:

كذبتم وبيت الله يبزى محمد ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
ألم تعلموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا نعبأ بقول الأباطل

ولذلك كان أكثر ما يخاف البيات (**الاغتيال ليلاً**) فكان إذا عرف مضجعه، يقيمه بعد أن يذهب من الليل هزيع، ويضجع ابنه عليّاً عليه السلام مكانه، فقال علي له ليلة: يا أبت إني مقتول**!!**.

فقال له أبوه:

اصبرن يابني فالصبر أحجى
كل حي مصيره لشعوب
قد بذلناك والبلاء شديد
لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغر ذي الحسب الثا
قب والباع الكريم النجيب
إن تصبك المنون فالنبل تبرى
فمصيب منها وغير مصيب

فأجابه علي عليه السلام:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد
والله ما قلت الذي قلت جازعاً
ولكنني أحببت أن تر نصرتي
وتعلم أني لم أزل لك طائعاً

سأسـعى لوجـه الله في نـصر أحمـد
نبي الهـدى المحمود طفـلاً ويافعاً[١].

ولم يكن يتوقع أن يبقى ذلك خفياً على قريش، لذلك كان كل واحد منهم يفكر في ردّ الفعل المتوقع من أبي طالب لو وصل إلى الرسول ﷺ أذى وسوء، فها هو أبو طالب لا يفتأ يذكر نصرته للرسول ﷺ وذبّه عنه، ودعوة أبنائه للدفاع عنه وسائر الناس للإيمان به، وهو وإن لم يشأ إظهار إيمانه لما تقدم، إلاّ أنه لا يترك موقفاً يبين لقريش قوة محمد ﷺ به، إلاّ وأظهره، ولا أظهر من موقفه من زعماء قريش عندما تآمروا عليه قائلين: وما خير من أن نغتال محمداً.. فلما كان مساء تلك الليلة فُقِد رسول الله ﷺ وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه فجمع فتياناً من بني هاشم وبني عبد المطلب ثم قال: ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخل المسجد فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية (**يعني أبا جهل**) فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحالة. فقال له:

- يا زيد أحسست ابن آخي؟! قال زيد: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال له:

---

(١) الغدير ٧/ ٣٥٨.

- يا ابن أخي أين كنت؟! أكنت في خير؟! فأجابه: نعم، فقال له: ادخل بيتك.

فدخل الرسول ﷺ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذ بيده على أندية قريش ومعه الفتيان والمطلبيون فقال:

- يا معشر قريش! هل تدرون ما هممت به؟! قالوا: لا.

فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عمّا في أيديكم، فكشفوا فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة، فقال لهم: لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم. فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبو جهل.

وبقدر ما هبطت الذلة رؤوس زعماء قريش، فقد مضى أبو طالب بالنبي ﷺ عزيز الجانب، مرفوع الهامة وهو يقول:

اذهب بنيَّ فما عليك غضاضة

اذهب وقرَّ بذاك منك عيونا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم

حتى أوسد في التراب دفينا

ودعوتني وعلمت أنك ناصحي

ولقد صدقت وكنت قبل أمينا

وذكرت ديناً لا محالة أنه

من خير أديان البرية دينا

ولما رأت قريش أن الرسول ﷺ في حصن منيع من القتل،

وأنه لا يتم لهم ذلك مادام أبو طالب موجوداً، فتحولوا إلى طريق آخر وهو تصفية الشخصية والاغتيال الاجتماعي، عبر زيادة وتيرة الاستهزاء والسخرية، والإسقاط فكان طريقه ﷺ يمتلئ بالأشواك والحجارة، وبيته المجاور لبيت أبي لهب مكاناً كان هدفاً للأوساخ ولم يكن وحده في ذلك بل تساعده في ذلك **(امرأته حمّالة الحطب)**. ولم يكن دور أبي طالب في هذا الصعيد أقل من سابقه.

وفي المسجد الحرام، وحيث يصلي رسول الله ﷺ، جلس أبو جهل ومعه عدد من القرشيين، فلما دخل النبي في الصلاة، قال أبو جهل:

- من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟ فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثاً ودماً فلطّخ به وجه النبي ﷺ، فانفتل النبي ﷺ من صلاته، ثم أتى عمه أبا طالب:

- يا عم ألا ترى ما فُعل بي؟!

- من فعل بك هذا؟! سأله عمه.

- عبد الله بن الزبعرى.

وانتهضت في أبي طالب حمية الدين الهاشميّة، وقام حاملاً سيفه على عاتقه ومشى معه، حتى أتى القوم، فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون، فقال لهم:

- والله لئن قام رجل جلّلته بسيفي.

فقعدوا حتى دنا إليهم، وقال للنبي: يا بني من الفاعل بك هذا؟!.

فقال: عبد الله بن الزبعرى.. فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً فلطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول..

ولك أن تتصور عزيزي القارئ **(سادة)** قريش وقد رجع كل واحد منهم إلى منزله وقد تخضبت لحيته، وتلطخت ثيابه من الدماء الفاسدة.

وإذ يؤمن حمزة أخوه برسول الله ﷺ، يقوى جانب الرسول ﷺ فيسر ذلك أبا طالب، ويمرّ على أخيه مشجعاً إياه على الالتزام بدين الرسول ﷺ، وإظهار ذلك، وإشهاره أمام الناس قائلاً له:

فصــبراً أبــا يعــلى عــلى ديــن أحمــد
وكــن مُظهِــراً للدين وفقــت صابراً
وحُــط مــن أتى بالحــق من عنــد ربه
بصــدق وعــزم لا تكــن حمــزُ كافــرا
فقــد سرني إذ قلــت إنــك مؤمــن
فكـــن لرســـول الله في الله نـــاصراً

وبادِ قريشاً بالذي قد أتيته جهاراً وقل: ما كان أحمد ساحراً[1]

---

(١) المصدر عن أسد الغابة.

وأطلقت قريش آخر سهم في كنانتها، المساومة، بعد أن فشلت المناوأة.

- يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالفك دينك[١] ودين آبائك. وفرّق جماعة قومك وسفه أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل.

كان بريق النجاح يطلّ من عيون القادمين إلى أبي طالب وهي تلتقي، فما هي إلاّ ساعة من النهار حتى يحتفلوا بنخب قتل الرسول ﷺ، إذ لم يكن يخالجهم أدنى شك في سرعة قبول أبي طالب.

جواب أبي طالب كان صفعة عنيفة لخيالاتهم، وهدماً لهيكل أمانيهم:

والله لبئس ما تسومونني!! أتعطونني ابنكم اغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه!! هذا والله ما لا يكون أبداً!

وكان نتيجة ذلك المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية الشاملة فقد اجتمعت قريش على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: أن لا ينكحوا إليهم ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا

---

(١) يظهر من هذه الجملة الأداء الرائع من قبل أبي طالب لدوره المتمثل في إخفاء الإيمان وإظهار الشرك، بحيث لم يشكوا في خلاف النبي لمعتقدات أبي طالب.

يتبايعوا ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله للقتل، ويخلوا بينهم وبينه.

وهكذا غدا شيخ الأبطح سجين الشِّعب يشرب الماء الآسن ويأكل ورق الشجر تمرّ الأيام والحصار يشتد يوماً بعد يوم، والجوع يفتك بالصبية، والصيف والعطش يجهد الكبار، وما كان يرسله بعض القرشيين من المنصفين في جوف الليل من جمال محملة بالطعام لم يكن ليسد جوع الأفواه ولا يروي غليل عطشها، وأبو طالب يتحمل ذلك كله في سبيل الدفاع عن دين الله وحياطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يزداد في اللأواء إلاّ بصيرة في دينه.

كان يوم..

يقبل فيه الرسول على أبي طالب، وليسر إليه من بين الجمع بكلمات، فيبتسم أبو طالب:

- يا ابن أخي! أربك أخبرك بهذا؟!

- نعم. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

- والثواقبِ ما كذبتني قط.

***

تهامس القرشيون، وسكروا بخمرة «**وهم الانتصار**» فما الذي جاء بأبي طالب ومعه الهاشميون، وقد بانت آثار الحصار على سمرة وجوههم، وضعف أبدانهم، وثيابهم أيضاً.. بينما رقّ غيرهم لحال

أبي طالب، ذلك الذي كان أعز قريش، وشيخ أبطحها أيصير به التزامه بابن أخيه إلى هذا الحد من الجهد والبلاء؟!.

نعم.. ها قد جاء أبو طالب إلى المسجد:

- يا معشر قريش..

جرت بيننا وبينكم أمور لم تذكر في صحيفتكم فأتوا بها لعلّ أن يكون بيننا وبينكم صلح.. **(لقد قال ذلك خشية أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها فتفشل المهمة)**. وهكذا أتوا بها وهم لا يشكون أن أبا طالب يدفع إليهم النبي ﷺ.. ووضعوها بينهم، وقالوا لأبي طالب:

- قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم!! فأجابهم:

- أتيتكم في أمر هو نَصف بيننا وبينكم.. أن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني: أن الله قد بعث على صحيفتكم دابة فلم تترك فيها إلاّ اسم الله فقط، فإن كان كما يقول فأفيقوا عما أنتم عليه فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم!

فقالوا -بأجمعهم-: رضينا!!

وفتحت الصحيفة فإذا بها قد أكلتها الأرضة من أولها إلى آخرها باستثناء اسم الله سبحانه وتعالى.

وبهذا خرجوا من الحصار وبان لمن كان له قلب صدق نبوة الرسول، وأرخ أبو طالب تلك الحادثة في قصيدته الدالية التي جاء فيها:

ألا إن خـــير النـــاس نفســاً ووالـــداً
إذا عـــد ســـادات البريـــة أحمـــد
نبـــي الإلـــه والكريـــم بأصـــله
وأخلاقـــه وهـــو الرشـــيد المؤيـــد

وخرج الجمع من ذلك الحصار، وكانت إرادة الله أن تختم حياة شيخ المؤمنين الحافلة بالفضائل، بفضيلة من هذا النوع، بعد أن بلغ به العمر أقصاه في خدمة النبي وأتباعه والدفاع عنه.

وها هو أبو طالب مسجى على فراش الموت يلقي بعينيه لمن حوله من القرشيين موصياً بنصر النبي ﷺ، مستشرفاً أبعاد المستقبل حيث سيسخر الله لنصرة ابن أخيه من ينهي أسطورة قريش وينشر الدين لا في أرض العرب بل لكل الناس، ويبين أن سبب عدم إظهاره إيمانه بعدما قبله قلبه، إنما هو خوفه الشنآن والعداوة، والتزامه التقية..

...وإني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد

أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها.

دونكم يا معشر قريش! ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلك أحد سبيله إلاّ رشد ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد، ولو كان لنفسي مدة في أجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي.

وأدار عينه في بني عبد المطلب، وأوصاهم بطاعة الرسول واتباعه على الخصوص..

- لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فاتبعوه وأعينوه ترشدوا..

وهكذا فكما كان حفظ محمد واتباعه رفيق حياة أبي طالب فقد كان ذكر (**محمد**) واسم (**محمد**) ودين (**محمد**) آخر لفظة من الدنيا، وأطبقت عينا مؤمن قريش.

ونزل الوحي على رسول الله لكي يهاجر تاركاً مكة فلم يعد له بها ناصر بعد أبي طالب.

أبو طالب مؤمن قريش

ولـــولا أبوطالـــب وابنــــه — لما مثـل الديـن شـخصًا فقاما

فــذاك بمكـــة آوى وحامـــى — وهــذا بيثـرب جـسّ الحمامـا

فللـــه ذَا فاتحـا للهـــدى — ولله ذَا للمعــالي ختامـــا

ومـــا ضر مجــدَ أبي طالـــب — جَهُـولٌ لغـا أو بصـيرٌ تعامـى

كـــما لا يــضر إيــاة الصبــاح — مـن ظن ضـوء النهـار الظلاما[1]

جاء في الخبر المعتبر في الكافي للكليني عن أبي عبد الله عليه السلام قال إن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله اجرهم مرتين.[2]

المعروف عند العرب أن ما بدئ بأب أو بأم، فهو كنية، وليس اسماً. ولكن قد تغلب الكنية الاسم وتكون هي المعرف لصاحبها بحيث لا يعرف إلا من جهة كنيته دون اسمه. وهذا ما حصل بالنسبة لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) ابن ابي الحديد؛ شرح نهج البلاغة ١٤/ ٨٤.

(٢) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي ١/ ٣٧٣-علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن الصادق

ما هو اسمه الأصلي؟.

هناك قولان فيه:

الأول: عمران بن عبد المطلب هو اسم أبي طالب وقد ورد هذا في بعض الروايات.

الثاني: اسمه عبد مناف وهذا لعله المشهور في الألسنة والكتب بل وما ورد في وصية أبيه عبد المطلب[١] إليه.

وهو بالتبع يثير سؤالا: أنه كيف يكون عبد المطلب موحدًا بل فِي تلك الدرجة العالية من التوحيد والإيمان وفِي نفس الوقت يسمي ابنه بعبد مناف؟.

بينما مناف هو اسم صنم من أصنام قريش وربما زاد البعض ولا سيما أصحاب التوجه السلفي المُصر على عدم إيمان آباء النبي وأجداده في الطنبور نغمة ليقولوا هذا دليل على أن عبد المطلب لم يكن موحداً!.

وقد ذكرت أجوبة كثيرة على ذلك، منها:

أولاً: أنه ليس من الثابت أن مناف اسم منحصر لصنم بل مناف في لغة العرب: من ناف وينيف ونواف بمعنى الزيادة والنماء، بل قيل إن الاسم يعني عبد الله لأن المناف هو المشرف والمطلع وهو الله سبحانه.

---

(١) أوصيك يا عبد مناف بعدي   بواحـــد بعـــد أبيـــه فـــرد

أو يكون من الأسماء الشائعة ويصير مثل عبد المطلب وَعَبد الحسين وأمثال ذلك ولا نحكم بالتأكيد أنه اسم صنم وعلى فرض بعض القبائل سمت صنمها بهذا الاسم فهذا لا يعني امتلاكهم هذا الاسم بحيث لا يستطيع أحد أن يستعمله غيرهم.

ثانياً: إن الاسم (**عبد مناف**) كان معروفا عند العرب قبل ان تكون الأصنام موجودة، فإنه كان في زمان قصي جد النبي الأعلى، مع أنه لم يكن في ذلك الوقت صنم باسم مناف، وإنما جاءت بعد عمرو بن لحي الخزاعي. وكان جد عبد المطلب الأعلى (**والد أبيه هاشم**) يسمى عبد مناف! فلتكن هذه التسمية بهذا اللحاظ لا بلحاظ كونه اسم صنم.

ثالثاً: إن الأسماء عند العرب في تلك الازمنة، غالبًا هي أسماء مرتجلة ليس ملحوظاً فيها المعنى والمضمون الذي تعبر عنه بمقدار ما هي تمييز للشخص، ولذلك وجد كثير من الأسماء ليس لها معنى وبعضها ليست أسماء حسنة[1] بل بعضها معيب. ولا ريب أن المعنى المعيب لم يكن مقصوداً من قبل آباء هؤلاء!.

---

(١) الأبشيهي؛ محمد بن أحمد: المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ٦٩: دخل شريك بن الأعور على معاوية فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم وإنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت لها الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة صغّرت

رابعاً: إننا نقطع بأن عبد المطلب لم يكن ليسمي ولده باسم العبودية لأحد الأصنام وهو الذي اشتهر عنه أنه امتنع من عبادتها ونهى أهل بيته عن ذلك، ومن كان يتأثر به، وقد ذكر هذه الخصلة فيه من ترجم حياته.

أضف الى ذلك أن كلمة عبد هي من المشتركات اللفظية وليست معنى منحصراً بالعبودية التي نفهمها بين الإنسان وربه وإلا لما كان يقول في القرآن ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**﴾[١] فعبادكم هنا: ليس المقصود بها الخضوع العبادي الثابت بين الإنسان وربه وإنما بمعنى الخدمة والطاعة وما شابه ذلك.

◄ زواج أبي طالب بفاطمة بنت أسد

تزوج أبو طالب فاطمة بنت أسد الهاشمية وكانت من السابقات إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث أنها كانت الرقم الحادي عشر كما قيل في ترتيب المسلمين الأوائل ونتج عن هذا الزواج اربعة من الذكور طالب وعقيل وجعفر وعلي عليه السلام واثنتان من الإناث أم هانئ وجمانة.

سيأتي الحديث عن فاطمة بنت أسد بشكل خاص في صفحات قادمة، وفي حياتها محطات مهمة تستحق الحديث فيها.

---

(١) سورة النور: ٣٢

١) سبقها الى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢) رعايتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبل البعثة، بل من عمر ثمان سنوات عندما توفي عبد المطلب جد النبي كان عمره ثمان سنوات، وقد استدعى أبا طالب وأوصاه بحفيده النبي محمد، فكان في بيتها منذ ذلك الوقت.

٣) أنها ستكون حجة في أمر عقائدي وهو تثبيت إيمان أبي طالب كما استدل بذلك الإمام علي ابن الحسين عليه السلام [(١)].

فإما أن تقول كلاهما كافران وهذا بالإجماع ساقط، لأنها من السابقات للإسلام، أو تقول أبو طالب بقي على كفره وفاطمة كانت مؤمنة والنبي لم يعارض ذلك عليهم وقد طبَّق الأحكام على الآخرين دون عمه وزوجته وهذا خدش في عدالة النبي وفِي إيمانه برسالته!!.

ولم يبقَ إلّا ان يكون أبو طالب مؤمنًا كتم إيمانه فأقره النبي على نكاحه وأوتي في ذلك أجره مرتين - أجر الإيمان وأجر الكتمان- لان الكتمان من الأمور الصعبة. فإننا نرى المؤمنين الذين يعيشون في أجواء معادية لهم يعانون معاناة عظيمة فهو مضطر للتقية إذ لا يستطيع أن يعبد ربه بالطريقة التي يراها صحيحة وكاملة، وهو

---

(١) ابن أبي الحديد؛ عبد الحميد: شرح نهج البلاغة ١٤/ ٦٨: حين سئل الإمام علي بن الحسين عليه السلام عن إيمان أبي طالب قال: « واعجبا إن الله نهى رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام ولم تزل تحت أبي طالب.

مترقب وحذر ألّا يكشف أمره (**دينه أو مذهبه**) بينما لا يعانيها الإنسان الذي يظهر إيمانه (**عقائده وشرائعه**) ويعيش في جو اعتيادي ولا يخاف من أحد!.

◄ الفقير الذي ساد قريشا

ما ساد قريشاً فقيرٌ ولقد سادهم أبو طالب[١].

فإنه حتى عبد المطلب والده لم يكن فقيراً بل كان أشبه بتاجر متوسط، ولكن المعروف أن أبا طالب كان قليل المال، وشاهد ذلك قضية الرفادة والسقاية وكيف انتقلت منه إلى العباس أخيه، فإنه «**لَمَّا صَارَ أَمْرُ السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ اقْتَرَعُوا فَخَرَجَ سَهْمُ هَاشِمٍ فَوَلِيَ ذَلِكَ وَقَامَ بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ هَاشِمٌ بِغَزَّةَ قَامَ بِأَمْرِ السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ بَعْدَهُ بِوَصِيَّةٍ مِنْهُ الْمُطَّلِبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ أَخُوهُ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ المطلب قام بذلك عبد المطلب بن هَاشِمٍ ثُمَّ ابْنُهُ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ثُمَّ أبو طالب بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ثُمَّ إِنَّ أبا طالب أَمْعَرَ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ فَعَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِ السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ فَاسْتَسْلَفَ مِنْ أَخِيهِ الْعَبَّاسِ بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِلنَّفَقَةِ عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ آلافِ دِرْهَم، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ سَأَلَهُ سَلَفَ خَمْسَةَ عَشرَ أَلْفَ دِرْهَم، أَوْ قَالَ أَرْبَعَةَ عَشرَ أَلْفَ دِرْهَم، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ: إِنَّكَ لَنْ تَقْضِيَنِي مَا لِي عَلَيْكَ فَأَنَا أُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَ عَلَى أَنَّكَ إِنْ لَمْ تُؤَدِّ إِلَيَّ**

---

(١) ابن ابي الحديد؛ شرح نهج البلاغة ١/ ٢٩: « وما أقول في رجل أبوه أبو طالب سيد البطحاء وشيخ قريش ورئيس مكة قالوا قل أن يسود فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له وكانت قريش تسميه الشيخ.»

مَالِي كُلَّهُ فِي قَابِلٍ فَأَمْرُ هَذِهِ الْمَكْرُمَةِ مِنَ السِّقَايَةِ وَالرِّفَادَةِ إِلَيَّ دُونَكَ وَالْمَالُ لَكَ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ الْمَوْسِمُ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ ازْدَادَ أبو طالب عَجْزًا وَضَعْفًا لِقِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ تُمْكِنْهُ النَّفَقَةُ وَلَمْ يَقْضِ الْعَبَّاسُ مَالَهُ، فَصَارَتِ السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ إِلَيْهِ. وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ كَرْمٌ (بستان عنب) بِالطَّائِفِ يُؤْتَى بِزَبِيبِهِ فَيُنْبَذُ فِي السِّقَايَةِ».[١]

هذا يبين لنا أن أبا طالب لم يكن صاحب مال ولكنه صاحب شخصية وزعامة في قريش وبهذه الشخصية والحضور الاجتماعي القوي استطاع أن يحمي ابن أخيه رسول الله ﷺ، ومن أجل الاحتفاظ بهذا الحضور القوي، لا بد أن يخفي إيمانه، وإلا فإنه سيكون على خط المواجهة الصريحة معهم، وسيفقد قوة تأثيره فيهم!.

إننا نلاحظ أن كفار قريش كانوا يتعاملون معه في بداية الأمر على أساس أنه محل شكواهم، وأنهم ينتظرون منه أن يمنع ابن أخيه من **(الاعتداء على آلهتهم ونظامهم الاجتماعي)** ويطلبون منه الحل. ولذلك عندما بعث النبي جاؤوا الى أبي طالب وقالوا: إن ابن اخيك سفه أحلامنا وعاب آلهتنا[٢] فمُرهُ ليكف عن آلهتنا!.

---

(١) البلاذري؛ أحمد: أنساب الأشراف ٤/ ١٥.

(٢) في الكافي ٢/ ٦٤٩ عن أبي جعفر عليه السلام قال: أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا: إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا فادعه ومره فليكفّ عن آلهتنا ونكفّ عن إلهه، قال: فبعث أبو طالب إلى رسول اللّه ﷺ فدعاه، فلما دخل النبيّ ﷺ لم ير في البيت إلّا مشركا فقال: السَّلامُ عَلىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدىٰ ثمّ، جلس فخبّره أبو طالب بما جاءوا له فقال: أوَ هل لهم

بل جاؤوا ليعقدوا معه اتفاقية تبادل!! تنص على إعطائه إياهم النبي ليقتلوه مقابل إعطائهم إياه عمارة بن الوليد يكون مكانه!.

فقال أبو طالب: عجبٌ! آخذ ابنكم حتى أغذوه لكم وأعطيكم ابني حتى تقتلوه![1].

وفشلت محاولات كفار قريش كلها في الحد من دعوة النبي والوقوف في وجهه ما دام أبو طالب حياً، «**ولما مات أبو طالب نالت قريش منه من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه؛ فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه**

في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب ويطؤون أعناقهم؟ فقال أبو جهل: نعم وما هذه الكلمة؟ فقال: تقولون: لا إله إلا الله، قال: فوضعوا أصابعهم في آذانهم وخرجوا هرابا وهم يقولون: ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق فأنزل الله تعالى في قولهم: ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ- إلى قوله- إِلَّا اخْتِلَاقٌ.

(١) ابن سعد؛ محمد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٠٢؛ «**فمشوا إلى أبي طالب حتى دخلوا عليه فقالوا أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا وقد رأيت هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع بن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا وجاؤوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا قد جئناك بفتى قريش جمالا ونسبا ونهادة وشعرا ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة قال أبو طالب والله ما أنصفتموني تعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه ما هذا بالنصف تسومونني سوم العزيز الذليل!!**

التراب وتبكي ورسول الله ﷺ يقول لها: «يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك، ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[١].

◄ تعهد بالدفاع والحماية من البداية

لقد كان واقعياً توسمُ وفراسة عبد المطلب بشأن ابنه أبي طالب عندما أوصاه بالاهتمام والرعاية لابن أخيه النبي محمد وقد لا يكون ذلك فقط لأجل كون عبد الله وأبي طالب شقيقين ومن أم واحدة، فهذا لا يكفي إذا لم تكن الشخصية مسؤولة وشجاعة جادة! وكان يمثل هذه الشخصية أبا طالب بين أبناء عبد المطلب الباقين بأفضل أنحائها، ولذا يعتقد أن عبد المطلب أوصاه بالنبي محمد، وبالفعل فإنه بالإضافة إلى موقفه في كفالة النبي طوال فترة طفولته وصباه وشبابه، واصل حمايته ورعايته بعدما بعث بالرسالة، بينما لم يفعل ذلك مثلاً عمه العباس! مع إمكاناته المالية الضخمة، وهذا راجع إلى ما ذكرنا من الصفات الشخصية لأبي طالب، بل لأبنائه من بعده، فقد نقل أرباب السير أن النبي ﷺ لما أراد أن يبدأ دعوته جاء إلى العباس عمه طالباً منه نصرته ومعونته في هذه الدعوة.

فقال له: «**إن الله قد أمرني بإظهار أمري وقد أنبأني واستنبأني فما عندك؟ فقال له العباس: يا بن أخي تعلم أن قريشاً أشد الناس حسداً لولد أبيك، وإن كانت هذه الخصلة، كانت الطامة الطماء والداهية العظيمة، ورمينا عن قوس واحد وانتسفونا نسفاً صلتاً،**

---

(١) الأميني؛ عبد الحسين؛ إيمان أبي طالب وسيرته ١/ ٦٤.

ولكن قرّب إلى عمك أبي طالب فإنه أكبر أعمامك، إن لا ينصرك لا يخذلك ولا يسلمك.

فأتياه فلما رآهما أبوطالب قال: إنّ لكما لظنة وخبراً، ما جاء بكما في هذا الوقت؟ فعرفه العباس ما قال له النبي وما أجابه به العباس، فنظر إليه أبوطالب وقال له: اخرجْ ابنَ أخي فإنك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والاعلى أباً، والله لا يسلقك لسان إلا سلقته ألسن حداد، واجتذبته سيوف حداد، والله لتذلن لك العرب ذل البُهم لحاضنها، ولقد كان أبي يقرأ الكتاب جميعا، ولقد قال: إن من صلبي لنبياً لوددت أني أدركت ذلك الزمان فآمنت به، فمن أدركه من ولدى فليؤمن به»[١].

ولسان حاله:

والله لـن يصلـوا إليـك بجمعهـم
حتـى أوسـد في الـتراب دفينـا
فاصـدع بأمـرك ما عليـك غضاضة
وأبـشر بـذاك، وقـر منـك عيونـا
ودعوتنـي، وزعمت أنـك ناصحي
ولقـد صدقـت، وكنـت قبـل أمينـا
وعرضـت دينـا لا محالـة إنـه
مـن خـير أديـان البريـة دينـا

---

(١) المجلسي؛ محمد باقر: بحار الأنوار ٣٥/ ١٤٢.

كانت نتيجة حماية أبي طالب للنبي ﷺ، ودفاعه عنه بشكل دائم أمام قريش وتوجيهه الرسائل الواضحة للقرشيين بأنهم لو مسّوا النبي بالأذى فسيكون ذلك نهاية من يمسه بالأذى، ولقد صدق في مقالته: لا يسلقك لسان إلا سلقته ألسن حداد، واجتذبته سيوف حداد بالعمل.

ففي ذات مرة قال جمع من قريش: أيمرّ بنا ابن أبي كبشة ولا يسلّم علينا، فأيّكم يأتيه فيفسد عليه صلاته؟ فقال عبد الله بن الزبعرى السهمي: أنا أفعل. فأخذ الفرث والدم فانتهى به إلى النبيّ ﷺ وهو ساجد فملأ به ثيابه ورأسه ولحيته، فانصرف النبيّ ﷺ حتّى أتى عمّه أبا طالب، فقال له: يا عمّ من أنا؟ فقال: ولِمَ يا بن أخي؟ فقصّ عليه القصّة. فقال: وأين تركتهم؟ فقال: بالأبطح. فنادى في قومه يا آل عبد المطّلب، يا آل هاشم، يا آل عبد مناف. فأقبلوا إليه من كلّ مكان ملبّين، فقال: كم أنتم؟ فقالوا: نحن أربعون. فقال: خذوا سلاحكم، فأخذوا سلاحهم فانطلق بهم إليهم، فلمّا رأت قريش أبا طالب أرادت أن تفترق فقال: وربّ البنيّة ما يقوم منكم أحد إلاّ جلّلته بالسيف، ثم أَمَرَّ ذلك السلا على سبالهم[1] ولحاهم.

وكانت تلك رسالة تامة لكل القرشيين، ألا يقتربوا من حرمة النبي محمد.

---

(١) سلا الناقة هو الغشاء الذي فيه الجنين. والسبال: الشوارب.

هذا إضافة إلى مئات أبيات الشعر، وعشرات القصائد التي كانت تعلن بشكل لا مرية فيه بأنه واقف كالجبل إلى جنب ابن أخيه، فها هو يقول:

كذبتم وبيت الله يبزى محمدٌّ ... ولما نطاعن دونه ونناضلِ

ونسلمه حتى نصرع دونه ... ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

◄ الحصار في شعب[1] أبي طالب:

ردت قريش على تلك المناصرة من أبي طالب **(ومن خلفه بنو هاشم)** لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالمحاصرة الاقتصادية والاجتماعية، وإلجائهم إلى أن يبقوا في شعب أبي طالب، ويقرروا على المجتمع المكي مقاطعتهم.

لقد مرت أيام الحصار وشهوره وسنواته الثلاث عسيرة جداً على المسلمين **(بل على عموم بني هاشم ممن لجأ إلى الشعب، فإنه فرض عليهم الحصار وإن لم يكونوا مسلمين)** والغرض هو ان يتم الضغط على النبي ليتوقف عن دعوته أو يتوقف أبو طالب عن حمايته فيتم لهم ما يريدون من قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان اتفاق القرشيين على ألّا يبيعوا شيئا لبني هاشم، ولا يشتروا منهم ولا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم ولا يسمحوا لأحد حتى من خارج مكة أن يبيعوهم، فإما كانوا يشترون من الباعة بضائعهم بأغلى

---

(١) الشِّعب بكسر الشين، تعني الفجوة بين الجبلين، وشعب أبي طالب هو بمثابة الوادي بين جبل أبي قبيس وجبل حنتمة، خلف الصفا.

الأثمان أو يهددوهم بأن يقاطعوا وألّا يسمح لهم بالبيع في مكة!.

وقد استنفد هذا الوضع ما كان لدى بني هاشم من المال، ولا سيما أموال خديجة زوجة النبي ﷺ، حيث أعطت ما كانت تملكه بسخاء في هذا السبيل، ولا شك أنه كان هناك من يخاطر فيبيع بضاعته ولكن بأثمان مضاعفة! وكان هناك من يرق لحالهم فيهرب الأطعمة إلى الشعب.

انتهى هذا بعد أن تحرك بعض حلفاء بني هاشم في قريش ضد الحصار، وقد ذكر في هذا أبو البختري بن هشام وغيره، ولكن العنصر الأساس الذي أنهى الحصار هو ما كان بين النبي وأبي طالب، حيث أخبر النبي عمه أن الله سبحانه قد سلط حشرة الأرضة على وثيقة المقاطعة والحصار، ولم تُبقِ فيها إلا اسم الله عز وجل!.

فقال له أبو طالب: أَربُّك أخبرك بهذا؟.

قال: بلى!.

قال: والثواقب[1] ما كذبتني قط – هلم بنَا –

وجاء مع النبي وبعض ابنائه الى مجتمع قريش والتفت اليهم قال لهم: يا معشر قريش جئت لكم فيه نصفة لكم وعندي كلام حول الصحيفة.

---

(١) النجوم المضيئة.

وأراد أن يحضروها حتى لا يُكتشَف الموضوع وكانت موضوعة في قراب مغلق ومختوم، فأحضروها.

قال: إن ابن أخي أخبرني أن ربه قد بعث الأرضة على صحيفتكم فأكلتها ولم يبق منه الا اسمه الكريم فإن كان ما يقوله كذباً دفعته إليكم فقتلتموه وإن كان ما يقوله حقًّا علمتم أنكم ظالمون معتدون!.

قالوا: يا أبا طالب لعمرك هذا هو الإنصاف!.

ففتحوا الوثيقة ثم أرادوا استخراج ما فيها وإذ لا يوجد فيها إلا الغبار والتراب وقصاصة صغيرة (**باسمك اللهم**).

وهنا انكسر الحصار في السنة العاشرة من البعثة، ومع هذا الحصار الطويل وقد بلغ عمر أبي طالب الخامسة والثمانين، وفي تلك الظروف الصعبة غادر أبو طالب هذه الدنيا بعد أن وفى ما عاهد عليه بدفاعه عن رسول الله ﷺ.

فليس غريبا أن يستذكره رسول الله ويستحضر ذكره مرارا، لا سيما في مواضع النصرة والمفاداة، لقد سأل النبي ﷺ، من حضر عندما رأى بني هاشم في أول مواجهة عسكرية بين المسلمين وبين المشركين وهي موقعة بدر، فلما رأى تضحية حمزة بن عبد المطلب وبطولة علي بن أبي طالب وجراحات عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، قال من يحفظ شعر أبي طالب؟ فأراد أحدهم أن يقرأ قول أبي طالب:

وأبيـض يستسـقى الغـمام بوجهـه
ثـمال اليتامـى عصمـة للارامـل

فقال نعم هذا شعره ولكن أريد غيره، فقال أحدهم كأنك تريد قوله:

كذبتـم وبيـت الله يبـزى محمـد
ولمـا نطاعـن دونـه ونناضـلِ
ونسـلمه حتـى نـصرع دونـه
ونذهـل عـن أبنائنـا والحلائـل

أبو طالب المؤمن المحامي

روي عن سيدنا ومولانا أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق أنه قال: نزل جبرائيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «**يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: إني قد حرمت النار على صُلبٍ أنزلك، وبطنٍ حملك، وحجرٍ كفلك. فالصلب صلب أبيك عبدالله، والبطن الذي حملك فآمنة بنت وهب، وأما حجر كفلك فحجر أبي طالب**»[1].

عندما نتناول هذه الشخصية العظيمة بالحديث، نستحضر قضية مهمة وهي: أن فعل الإنسان للخير وقيامه بالعمل الصالح، لا يمكن أن يبقى خفيًا للأبد، فالله عز وجل قد تكفل بنشر العمل الصالح ورفعه إليه وقد أخبر الله سبحانه عن ذلك بقوله تعالى ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[2]، وورد في حديث قدسي ما معناه: «**يا ابن آدم عملك الصالح أنت تخفيه وعليَّ إظهاره**»، فلا تتصور أخي المؤمن أنك عندما تقوم بعمل خيرٍ، وفعلٍ حسن بأن

---

(١) ذكره الشيخ الكليني في الكافي (**مُشَكَّل**)١/ ٤٩٤، والشيخ الصدوق في الأمالي/ ٧٠٣

(٢) سورة فاطر: ١٠

هذا العمل لا أثر له، ولا نتيجة! كلا وأن ما يقوله البعض «**اعمل الخير وارمه في البحر، لا بل اعمل الخير ولن يذهب إلى البحر، وإنما هو بذرٌ وزرعٌ، وإذا لم يثمر اليوم أمام عينيك أثمر في جيل أبنائك، وفي جيل أحفادك وفي أجيالٍ أخرى، هذه طبيعة العمل الصالح؛ أنه يرتفع، فالعمل الصالح يرفعه الله، العمل الصالح مثل البالون إذا امتلأ بالهواء، طبيعته أن يصعد إلى الفضاء، لا يمكن أن يبقى بالأسفل، العمل الصالح طبيعته الإثمار.**

يقول الله تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾**﴾[١]

لقد كان إيمان أبي طالب، حمايته للنبي صلى الله عليه واله، ودفاعه عن الدعوة، هذه كلها وإن كانت في وقتٍ من الأوقات خفيةً إلا أنها لا تلبث أن تظهر، وذلك العطر لا بد أن ينتشر.

◄ متى طرحت قضية عدم إيمان أبي طالب؟

لم تكن قضية ايمان أبي طالب محل نقاش أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو زمان الخلفاء الثلاثة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويظهر أن أول فكرة وتشكيك في إيمانه كان في زمان أمير المؤمنين عليه السلام، بالرغم من أنه كان يفتخر بوالده ويقرع معاوية بالقول أن أباه أبا طالب هو خير من أبي سفيان وأن هذا لا يمكن أن يكون مع أبي طالب في كفة

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٤-٢٥

المقايسة كما قال ذلك في خطاب منه لمعاوية بن أبي سفيان «**..وأما قولك أنا بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل، فليس كذلك، لأن أمية ليس كهاشم، ولا حرباً كعبد المطلب، ولا أبا سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، وفي أيدينا فضل النبوة التي بها قتلنا العزيز، ودان لنا بها الذليل**».[١]

ولا نملك تأكيداً على أن الحادثة التي حدثت مع الامام عليه السلام عندما تحداه أحدهم بأنه كيف يكون في هذا المكان – الخلافة – والحال أن أباه معذب في النار!! هل كان ذلك الشخص مرتبطاً ببني أمية أو لا؟ لكن من المؤكد أن الامام علياً عليه السلام قد واجهه بنحو حازم مبيناً إيمان أبي طالب وأنه يشفع فيمن يشاء وأن نوره كأنوار الخمسة من أصحاب الكساء.

عن أبي عبد الله عن ابائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «**كان ذات يوم جالساً بالرحبة والناس حوله مجتمعون، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنك بالمكان الذي أنزلك الله به، وأبوك يعذب بالنار! فقال له: مه فض الله فاك والذي بعث محمداً بالحق نبياً، لو شفع أبي في كل مذنب على وجه الأرض لشفعه الله تعالى فيهم، أبي يعذب بالنار وابنه قسيم النار! ثم قال: والذي بعث محمداً بالحق نبياً، إن نور أبي طالب يوم القيامة ليطفئ أنوار الخلق إلا**

(١) ابن قتيبة الدينوري، الأخبار الطوال١٨٧، والزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار٤/ ٢١٦والشريف الرضي، نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام (**تحقيق صبحي الصالح**)، ص ٣٧٥

خمسة أنوار، نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونوري، ونور فاطمة، ونوري الحسن والحسين ومن ولده من الأئمة، لأن نوره من نورنا الذي خلقه الله عز وجل من قبل خلق ادم بألفي عام»[(١)].

وبعد هذه الفترة وعلى أثر تصاعد الخلاف الهاشمي العلوي مع الأموي السفياني والمرواني كان من الطبيعي أن يلجأ الأمويون إلى كل الوسائل التي تنتهي إلى تشويه سمعة الهاشميين، فقد جعلوا من السب لعلي عليه السلام سُنة، وهنا بدأ الأمويون ينشرون فكرة كفر أبي طالب، نكاية بابنه عليٍّ وأحفاده من الحسن والحسين ثم الأئمة المعصومين عليهم السلام، ولذلك نجد تعبير (**قوماً يزعمون أنه كافر**).

في رواية عن الامام زين العابدين عليه السلام وهذا يعني أنه على الأقل كان في السنوات التي تقترب إلى سنة سبعين أي بعد مرور نحو خمس وثلاثين سنة، ومع ملاحظة أن ذلك تم ظاهراً في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهنا نلاحظ تطوراً في جواب الامام السجاد عليه السلام، من الفتوى إلى الاستدلال العلمي على الفكرة، فقد استدل عليه السلام بإبقاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة بنت أسد -وهي من المتقدمات في الايمان- في نكاح أبي طالب إلى أن توفي أبو طالب، فالقائلون بكفر أبي طالب هنا إنما يطعنون في رسول الله لعدم تنفيذه أحكام الله! فقد نقل السيد فخار في كتابه إيمان أبي طالب: «**عن علي بن الحسين عليه السلام أنه سئل عن أبي طالب أكان مؤمنا فقال** عليه السلام:

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٣٣٥

نعم فقيل له: إن هاهنا قوماً يزعمون أنه كافر، فقال عليه السلام: واعجباً كل العجب أيطعنون على أبي طالب أو على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد نهاه الله تعالى أن يقر مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن ولا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد رضي الله عنها من المؤمنات السابقات فإنها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب رضي الله عنه»[١].

وتصاعدت نار الحملة تلك في نهاية أيام الأمويين، وأضاف إليها العباسيون مزيداً من الحطب على أثر اشتباكهم مع بني الحسن المجتبى بل عموم الثائرين العلويين، فكما أنهم شددوا الحملة على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وعلى الامام الحسن المجتبى[٢]، فقد صعدوا إلى الأصول بالتأكيد على كفر أبي طالب، في مقابل التأكيد على فضائل جدهم العباس بن عبد المطلب!.

فإذا كان في زمان الامام السجاد كان هناك (**قوماً يزعمون أنه كفره**)، فإن تعبير الروايات في زمان الامام الصادق عليه السلام أصبح (**الناس يقولون**) وتعبير الناس هنا قد يكون تعبيراً مجرداً يفيد الكثرة وهو ما يعادل اصطلاح (**الجماهير**) في هذا الزمان، أو أن يكون كما يراه بعض الباحثين[٣] من أنه يعني الرأي الرسمي الذي

---

(١) إيمان أبي طالب (**الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب**)، فخار بن معد الموسوي، ص ١٢٤

(٢) نجد هذا واضحا في الرسائل المتبادلة بين المنصور العباسي وبين محمد بن عبد الله بن الحسن (**النفس الزكية**)..

(٣) قد يستفاد ذلك من استعمالات الروايات لهذه اللفظة ومنها ما

تتبناه الخلافة وتبشر به. وقد ورد هذا النحو من التعبير في أكثر من رواية منها ما رواه يونس عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: يا يونس، ما يقول الناس في أبي طالب؟.

قلت: جعلت فداك يقولون: هو في ضحضاح من نار يغلي منها أُمّ رأسه فقال: كذب أعداء الله، إنّ أبا طالب من رفقاء النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أُولئك رفيقاً[1].

وكذلك نجده في رواية عبد الرحمن بن كثير: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ الناس يزعمون أن أبا طالب في ضحضاح من نار، فقال: كذبوا، ما بهذا نزل جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: وبما نزل؟ قال: أتى جبرائيل في بعض ما كان عليه، فقال: يا محمّد، إنّ ربّك يقرئك السلام ويقول لك: إن أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرّتين، وإن أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر الشرك فأتاه الله أجره مرّتين، وما خرج من الدنيا حتى أتته البشارة من الله تعالى بالجنة، ثم قال: كيف يصفونه بهذا؟ وقد نزل جبرائيل ليلة–ليلة مات أبو طالب–فقال: يا محمد، اخرج من مكة، فمالك بها ناصر بعد أبي طالب[2].

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام **قال: ما سمعته مني يشبه قول الناس فيه التقية، وما سمعت مني لا يشبه قول الناس فلا تقية فيه)** وسائل الشيعة **(الإسلامية)**، ج ١٨، الحر العاملي، ص ٨٨

(١) إيمان أبي طالب **(الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب)**، فخار بن معد الموسوي، ص ٨٢

(٢) المصدر السابق ص٨٤

◄ **تحويل قضية إيمان أبي طالب إلى قضية عقدية:**

نعتقد أن الاتجاه الأموي في الأمة لم ينته بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، وإنما استمرت أفكاره وأصوله، في تيار مدرسة الخلفاء وظهرت في كتب الحديث والرجال، وربما تماهى وتعاون مع بعض الخلفاء العباسيين الذين كانت لهم اتجاهات مبغضة لأهل البيت عليهم السلام. ونشط هذا الاتجاه ناشراً فروعه على نفس الأصول السابقة، فقد لاحظنا في بعض رجاليي تلك المدرسة ومحدثيها، إسقاطهم من كان يظهر ميلاً لأهل البيت حتى أصبح التشيع لهم تهمة! والمحبة لهم تضعيفاً! وهكذا.

وآنئذ فلا غرابة أن ينقل المحدثون روايات عن الخوارج والنواصب المعادين لأهل البيت عموماً ولعلي أمير المؤمنين عليه السلام خصوصاً، لكنهم (**يحتاطون ويتحرجون**) من النقل والرواية عن مثل الإمام الصادق والهادي والعسكري عليهم السلام !!.

وانعكس هذا على موضوع أبي طالب وقضية إيمانه! فالمفروض على مبانيهم أن تكون القضية تاريخية قابلة للأخذ والرد، وحاصلها أن شخصاً عاش في فترة بعثة النبي ودافع عنه.. هل آمن به قبل أن يموت أو لا؟ وهذه القضية ضمن هذه الحدود قضية تاريخية ينظر فيها إلى الروايات التاريخية والقرائن التي تنتهي بالباحث إلى أحد الرأيين.. لكننا وجدنا الأمر أبعد من ذلك فهم في التفسير يوردونها باعتبار أن آية ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى**

مَنْ يَشَاءُ﴾[١]، وفي ما يرتبط بشفاعة النبي يوردونها فهم يقولون إن الكفار والمنافقين لا تغني عنهم الشفاعة ولا تنفعهم ولذلك–كما يزعمون–نهي عن الاستغفار لعمه أبي طالب **(وأبيه عبد الله)!** وصارت جزءاً من العقائد عندهم بحيث أن من يؤمن بالله واليوم الآخر وبنبوة النبي صلوات الله عليه واله، ويؤمن بالملائكة، عليه أيضًا أن يؤمن بكفر أبي طالب!.

وهكذا ففي كل بحث تجد أنهم أحضروا هذه القضية، ففي بحث المعاد ويوم القيامة وهل تنفع الأنساب آنئذ أو لا؟ قالوا: إنه لا تنفع الأنساب والشاهد على ذلك أن أبا طالب لا ينفعه نسبه مع النبي!.

وكأن هذه القضية يدور عليها محور العلم والمعرفة الدينية! ولكنه التأكيد الدائم وتكرار المعلومة حتى تتحول إلى ثقافة بل إلى عقيدة لا مجال لمناقشتها وبحثها!.

◄ كيف نعرف إيمان أبي طالب؟

لو طرحنا هذا السؤال على العقلاء! نريد أن نتعرف على شخص من الأشخاص، ما هي عقيدته؟ ما أفكاره؟ ما التزاماته السلوكية والعبادية؟ فيا أيها العقلاء كيف نستطيع التعرف عليه؟

وهذا لا يختص بالتاريخ أو بالعقائد بل يشمل حتى قضايا

---

(١) سورة القصص: ٥٦

الزواج ومحاولات التعرف على من يتقدم لخطبة ابنتك مثلاً!.

يفترض أن جواب العقلاء سيكون؛ إن التعرف على شخص يتم بواحد أو أكثر من الوسائل والطرق التالية:

الوسيلة الأولى: التعرف عليه من خلال كلماته، فإن كلام الإنسان في الغالب يعبر عن ثقافته ونظرته للحياة ومعارفه عنها، وربما كان شارحاً لطريقة حياته أيضا..

إن الاستماع إلى كلام شخص يحدد عادة مستواه العلمي والفكري، ويبين للمستمع عقائد المتكلم ورؤيته. وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام «**تكلموا تُعرفوا فإن المرء مخبوءٌ تحت طي لِسانه**».

الوسيلة الثانية: هو أن نذهب إلى أهله وأسرته والقريبين منه، لكي ننظر كيف كان معروفا في أهله؟ وبأي الاتجاهات يذكرونه، فإن الأسرة عادة تكون أقرب الناس إلى أفرادها، وبالتالي أعرف الناس بهؤلاء الأفراد نظراً لطول الخلطة والمعاشرة. فإذا صدَقوا السائلَ القولَ فإن بإمكانهم أن يعطوا رؤية واضحة وصورة حقيقية عن الشخص المسؤول عنه.

الوسيلة الثالثة: أن نرى سلوكه في حياته، ماذا كان يعمل؟ ومن كان يوالي ويسير في ركابه ومن يتبرأ منه وينفصل عنه؟ ما هي أعماله؟ هل سيرته سيرة صالحي الناس أو الفاسدين منهم؟ بماذا يتمدح ويفتخر؟.

الوسيلة الرابعة: من الخطأ أن نحاول التعرف عليه من خلال كلمات أعدائه ووصف خصومه فإنهم في العادة لا ينصفون من يعاديهم إلا أن يكون هؤلاء الواصفون معصومين أو عدولاً لا تأخذهم العواطف جانب الحيف والظلم وأن يصفوه بما ليس فيه!

هذه الوسائل التي ذكرناها لا تختص بشخص دون آخر ولا فترة تاريخية دون غيرها، وإنما هي طرق عقلائية يسلكها-كلها أو بعضها-العقلاء في كل الأزمنة للتعرف على الأشخاص.

ولو أردنا تطبيقها على التعرف على شخصية أبي طالب بن عبد المطلب عليه السلام لوجدنا محصلة ذلك أننا أمام رجل هو شيخ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمتقدم عليهم في المنزلة بل له الفضل على أوائلهم بحمايتهم وحماية دعوة النبي ورسالته، وهؤلاء لهم الفضل على المتأخرين من الأصحاب. فهلم عزيزي القارئ لكي نتعرف عليه بخطوات الطريقة العقلائية التي ذكرناها مع ملاحظة أننا سنذكرها بنحو الاختصار والسهولة:

أما الوسيلة الأولى وهي التعرف عليه من خلال أقواله، فإن أقوال أبي طالب نثراً وشعراً[١] تعرب عن إيمانه، والشعر فيه اغلب لأنه يعد من الشعراء الكبار في قريش كما ذكر ذلك وأشار إليه غير

---

(١) قد يكون لهذا السبب وغيره نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قال كان أمير المؤمنين عليه السلام يعجبه أن يروي شعر أبي طالب عليه السلام وأن يدون وقال: تعلموه وعلموه.

واحد من المؤلفين وأكبروا شعره في فخامته وقوته:

١) فمن قوله[١] مخاطباً رسول الله ﷺ:

والله لـن يصلـوا إليـك بجمعهـم
حتـى أوسـد في الـتراب دفينـا
فاصـدع بأمـرك ما عليـك غضاضة
وأبـشر بـذاك وقـر منـك عيونـا
ودعوتنـي وعلمـت أنـك ناصحي
ولقـد دعـوت كنـت ثـم أمينـا
ولقـد علمـت بـأن ديـن محمـد
مـن خـير أديـان البريـة دينـا[٢]

---

(١) يلاحظ القارئ أنني هنا سأعتمد اعتماداً كاملا على العلامة الأميني رضوان الله تعالى عليه في كتابه الغدير ج ٧ الذي أربى فيه على الغاية وجاوز حد النهاية في إنصاف عم النبي وأب الوصي، وتتبع بما لا مزيد عليه مشيدا ما أراد لبنة لبنة حتى جاء كما يحب، ومع علمي بأن من أصول التوثيق الرجوع إلى المصادر الأولى، وعدم الاكتفاء بما نقل عنها، لكني لم أفعل ذلك مع تيسره وسهولته لا سيما في النسخ الالكترونية للكتب، فآثرت الاقتصار على ما نقله رحمه الله في الغدير، تقديرا لجهده وتأكيدا على أهمية الكتاب والرجوع إليه، وثقة بدقته وأمانة نقله.

(٢) الغدير، ج ٧، الشيخ الأميني، ص ٣٤٣ نقله عن ديوان أبي طالب ص ٢٩: وشرح ابن أبي الحديد ٣: ٣١٢ وقد أشار بعد ذكر مصادر هذه الأبيات ونسبتها إلى أبي طالب أن بعض علماء مدرسة الخلفاء، لكي يفسدوا أثر تلك الأبيات الواضحة في إعرابها عن إيمان أبي طالب بالنبي ودعوته، قد زادوا فيها بيتا فقال بعنوان: لفت نظر

٢) ومن ذلك شعره في مدح النبي ووصفه بعد أن استسقى به وهو لا يزال طفلاً صغيراً وأسنده إلى جدار الكعبة في قصة مفصلة، وأقسم على الله بحقه ومنزلته، فلما لبثت السماء أن أرخت عزاليها وسقت الناس غيثاً هيطلاً، فأنشأ يقول في قصيدة جاء فيها:

كذبتم وبيت الله نترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابل
كذبتم وبيت الله نبزي محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ويقول فيها:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في رحمة وفواضل
لعمري لقد كلفت وجدا بأحمد
وأحببته حب الحبيب المواصل
فلا زال في الدنيا جمالا لأهلها
وزينا لمن والاه رب المشاكل
فأصبح فينا أحمد في أرومة
تقصر عنه سورة المتطاول

زاد القرطبي وابن كثير في تاريخه على الأبيات:

لولا الملامة أو حذاري سبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

حدبت بنفسي دونه وحميته
ودافعت عند بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره
وأظهر دينا حقه غير باطل(١)

٣) وعندما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة هربا من إيذاء قريش لهم وفتنتهم إياهم عن دينهم، أرسل أبو طالب قصيدة للنجاشي ملك الحبشة يطلب منه أن يحسن جوار المهاجرين إليه، فقد «**أخرج الحاكم في المستدرك ٢: ٦٢٣ بإسناده عن ابن إسحاق قال: قال أبو طالب أبياتا للنجاشي يحضهم على حسن جوارهم والدفع عنهم -يعني عن المهاجرين إلى الحبشة من المسلمين-:**

ليعلم خيار الناس أن محمدا
وزير لموسى والمسيح ابن مريم
أتانا بهدي مثل ما أتيا به
فكل بأمر الله يهدي ويعصم

---

(١) الغدير، ج ٧، الشيخ الأميني، ص ٣٤٣ نقله عن ديوان أبي طالب ص ٢٩: وشرح ابن أبي الحديد ٣: ٣١٢ وقد أشار بعد ذكر مصادر هذه الأبيات ونسبتها إلى أبي طالب أن بعض علماء مدرسة الخلفاء، لكي يفسدوا أثر تلك الأبيات الواضحة في إعرابها عن إيمان أبي طالب بالنبي ودعوته، قد زادوا فيها بيتا فقال بعنوان: لفت نظر زاد القرطبي وابن كثير في تاريخه على الأبيات:

لولا الملامة أو حذاري سبة ❊ لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وإنكـــم تتلونـــه في كتابكـــم
بصـدق حديث لا حديـث المبرجم»(١)

٤) وعندما كسر الحصار الذي فرضته قريش على النبي وأبي طالب ومعهما المسلمون في شِعب أبي طالب أنشأ ابو طالب بمناسبة هذا الانتصار عليهم قصيدة جاء فيها الاعتراف الصريح بكون محمد ﷺ رسولا لله كما جاء في الكتب السماوية مثلما جاء في حق موسى النبي وعيسى عليهما السلام

ألا أبلغــا عنــي عــلى ذات بينهــا
لؤيًّـا وخصـا مـن لـؤيٍّ بنـي كعب
ألم تعلمــوا أنــا وجدنــا محمــدا
رسولا كموسـى خط في أول الكتب
وأن عليــــه في العبــــاد محبـــــة
ولا حيف فيمن خصـه الله بالحب(٢)

٥) وذكره بالنبوة واشتقاق اسمه من اسم الله الحميد في قوله:

لقــد أكــرم الله النبــي محمــدا
فأكــرم خلــق الله في النــاس أحمــد
وشــق لــه مــن اســمه ليجلــه
فـذو العرش محمـود وهـذا محمد(٣)

---

(١) المصدر نفسه ٣٤١
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر السابق ٣٤٤

وقد نقل عن بعض العلماء أن شعر أبي طالب الطافح بالإيمان والاعتقاد بنبوة ابن أخيه يزيد عن ثلاثة آلاف بيت[١] من الشعر.

ونجد هذا الشعر الإيماني القوي حاضراً في مواضع كثيرة يستشهد به النبي ويأمر من يحفظه أن يذكره للناس، مع أن الموقف لا يقتضي بالضرورة ذكر شعرٍ أو ذكر شعر أبي طالب، ولكنها اللفتة الرائعة من النبي ﷺ، أخلاقياً في رد جميل ومعروف أبي طالب عليه وعلى الدعوة، وعقديا لتثبيت إيمان أبي طالب برسول الله ومنزلته من ربه وأنه مصدر الخير والبركة، فإذا كان في المدينة واستسقى النبي وأمطرت يتذكر قول أبي طالب ويستنشد من يحفظه ليذكره! وإذا كان في معركة بدر ورأى دفاع بني عبد المطلب–حمزة وعلي وعبيدة–عن الإسلام، وتمثل عبيدة وهو ينزف الدماء على أثر قطع

---

(١) الغريب أن أتباع النهج الأموي في الوقت الذي يحشدون آراءهم ويضعون الأحاديث في (**كفره**) لا ينظرون إلى أي من هذه الأبيات الكثيرة الصريحة في الإيمان ويصرون على أنه لم يؤمن، بينما أبو سفيان الذي ينقل عنه قوله: فو الذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا من نار! كما نقله ابن حمدون في التذكرة الحمدونية ٩/ ١٧١، وهذا في ايام خلافة عثمان بن عفان أي بعد نحو ثلاثين سنة مما يفترض من (**اسلامه**)، وقد تكررت منه مواقف وكلمات قبل ذلك أيام الرسول وتمنيه العودة لمحاربة رسول الله مع زعمهم إسلامه كل هذه الأقوال والمواقف لم تخدش شيئا فيه وبقي هو الصحابي الذي هو فوق مستوى العدالة والوثاقة والذي هو من أهل الجنة والذي قوله وفعله أحد الأدلة الشرعية على الأحكام كما هو مقتضى نظرية عدالة الصحابة (**انظر كتابنا أصحاب النبي**)، بينما أبو طالب وراءه ما يقرب من ثلاثة آلاف قول وبيت تصرح بإيمانه.

ساقه بما قاله أبو طالب:

كذبتم وبيت الله يبزى محمد ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

يثني النبي على استشهاده بأبيات أبي طالب ويترحم عليه، وحين يكون على فراش الموت تستشهد فاطمة الزهراء وهي داخلة عليه بأبيات أبي طالب: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه..

حتى غدت أبيات أبي طالب أشبه بالنشيد الوطني الذي لا ينتظر إلا فرصة مناسبة ليرفع وتسمعه الآذان.

وأما الوسيلة الثانية: وهي التعرف عليه من خلال أقوال ووصف أسرته وعشيرته ومن يعرف بيئته، فإن أقرب الناس إليه هم بنو هاشم، وأولهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع علمه بأن مهمة أبي طالب في الدفاع عنه وعن رسالته المقدسة لا تتم إلا بكتمان إيمانه وإلا فإن قريشاً ستجرد سيفها ضد أبي طالب مباشرة وتنابذه العداء وتناجزه القتال مما يخل بهذه المهمة) ومع ذلك ترك كلمات هي أشبه بالضياء لمن أراد أن يهتدي، ثم جاء بتفصيلها أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام وباقي أئمة أهل البيت عليهم السلام.

◄ **فمن أقوال النبي في حق أبي طالب:**

١) ما نقله اليعقوبي في تاريخه ٢: ٢٦: لما قيل لرسول الله: إن أبا طالب قد مات عظم ذلك في قلبه واشتد له جزعه ثم دخل

فمسح جبينه الأيمن أربع مرات وجبينه الأيسر ثلاث مرات، ثم قال: يا عم! ربيت صغيراً، وكفلت يتيماً، ونصرت كبيراً، فجزاك الله عني خيراً، ومشى بين يدي سريره وجعل يعرضه ويقول: وصلتك رحم، وجزيت خيراً.

٢) وعن إسحاق بن عبد الله بن الحارث قال: قال العباس: يا رسول الله! أترجو لأبي طالب؟ قال: كل الخير أرجو من ربي.

أخرجه ابن سعد في الطبقات ١: ١٠٦ بسند صحيح رجالهم كلهم ثقات رجال[١].

٣) لما دعا رسول الله واستسقى وانهمر المطر على الناس في المدينة، حتى ضجوا خوف الغرق تبسم صلوات الله عليه وآله حتى بدت نواجذه؛ وهو يقول: اللهم حوالينا ولا علينا، ثم قال: لله درُّ أبي طالب لو كان حياً لقرت عيناه، من الذي ينشدنا شعره؟ فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا رسول الله! كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال: أجل فأنشده أبياتا من القصيدة ورسول الله يستغفر لأبي طالب على المنبر[٢].

---

(١) الغدير، ج ٧، الشيخ الأميني، ص ٣٨٢

(٢) نفس المصدر والصفحة.

٤) وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه قال لعقيل بن أبي طالب: «**يا أبا يزيد! إني أحبك حبين، حبًّا لقرابتك مني، وحبًّا لما كنت أعلم من حب عمي أبي طالب إياك**»[١].

٥) وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلمات في حق والده، فإنه في رسالته لمعاوية، قد فضل أباه على أبي سفيان (**مع أن أبا سفيان عندهم مؤمن برسول الله**) ولم يرد عليه معاوية هذا التفضيل وكان يمكن أن يقول له: كلا فإنّ أبي مسلم وأباك ليس بمسلم! وقد مر في الصفحات السابقة ذكر هذه الرسالة.

٦) وقد ذكر سبط ابن الجوزي في تذكرته في الصفحة السادسة أن علياً عليه السلام قال في رثاء أبي طالب:

أبا طالب عصمة المستجير — وغيث المحول ونور الظلم
لقد هد فقدك أهل الحفاظ — فصلى عليك ولي النعم
ولقاك ربك رضوانه — فقد كنت للطهر من خير عم[٢]

٧) وقد نقل الإمام الحسين عليه السلام عن أبيه المرتضى كلمات تؤكد لا على إيمانه فحسب بل على خلل ونقص إيمان من لم يعتقد بإيمان أبي طالب، فعنه عليه السلام أن والده أمير المؤمنين كان جالسا في الرحبة والناس حوله فقام إليه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين! إنك بالمكان الذي أنزلك الله وأبوك معذب في

(١) المصدر ص ٣٨٤.
(٢) المصدر ص ٣٨٧.

النار فقال له: مه فض الله فاك، والذي بعث محمداً بالحق نبياً لو شفع أبي في كل مذنب على وجه الأرض لشفعه الله، أأبي معذب في النار وابنه قسيم الجنة والنار؟ والذي بعث محمداً بالحق إن نور أبي طالب يوم القيامة ليطفئ أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار، نور محمد ونور فاطمة ونور الحسن والحسين ونور ولده من الأئمة، ألا إن نوره من نورنا خلقه الله من قبل خلق آدم بألفي عام[١].

٨) كما نقل في نفس المصدر كلمة للإمام السجاد علي بن الحسين، عن ابن أبي الحديد في شرحه ٣/ ٣١٢: روي أن علي بن الحسين عليه السلام سئل عن هذا -يعني عن إيمان أبي طالب- فقال: واعجباً إن الله تعالى نهى رسوله أن يقر مسلمة على نكاح كافر وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الاسلام ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات.

٩) وأخرى عن ابنه الإمام الباقر محمد بن علي عليه السلام فإنه سئل عما يقوله الناس أن أبا طالب في ضحضاح من نار فقال: لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه، ثم قال: ألم تعلموا أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يحج عن عبد الله وابيه وأبي طالب في حياته ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم؟!.

١٠) كما نقل كلمات متعددة عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن

---

(١) المصدر ص ٣٩٦.

محمد الصادق عليه السلام منها: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الكفر فآتاهم الله أجره مرتين وإن أبا طالب أسرَّ الإيمان وأظهر الشرك فآتاه الله أجره مرتين.

وأشار صاحب الغدير إلى وجود هذا النص في شرح ابن أبي الحديد وفي أصول الكافي للكليني.

ومنها ما أخرجه ثقة الاسلام الكليني في أصول الكافي ٢٤٤ عن الإمام الصادق قال: كيف يكون أبو طالب كافراً وهو يقول:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب
لدينا ولا يعبأ بقيل الأباطل
وأبيض يستسقي الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومنها ما روي عن يونس بن نباتة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: يا يونس، ما يقول الناس في أبي طالب؟ قلت: جعلت فداك يقولون: هو في ضحضاح من نار يغلي منها أم رأسه فقال: كذب أعداء الله، إن أبا طالب من رفقاء النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا[١].

١١) ونقل عن الكليني في الكافي، رواية عن الامام موسى بن

(١) المصدر ٤٠١.

جعفر الكاظم عليه السلام تشير إلى أن أبا طالب كان فوق منزلة المؤمن العادي وأنه كان من الأوصياء والحاملين لكتب السماء وذلك عن درست بن أبي منصور أنه سأل أبا الحسن الأول- الإمام الكاظم- عليه السلام: أكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محجوجاً بأبي طالب؟ فقال: لا. ولكنه كان مستودعاً لوصايا فدفعها إليه، فقال: قلت: فدفع إليه الوصايا على أنه محجوج به؟ فقال: لو كان محجوجاً به ما دفع إليه الوصية، قال: قلت: فما كان حال أبي طالب؟ قال: أقر بالنبي وبما جاء به ودفع إليه الوصايا ومات من يومه[1].

١٢) وعن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام نقل كلاماً يشبه كلاماً عن الامام الصادق فيمن يشكك في إيمان أبي طالب مع قيام البراهين عليه، فذكر أنه أخرج الشيخ أبو جعفر الصدوق بإسناد له: إن عبد العظيم بن عبد الله العلوي الحسني المدفون بالري كان مريضاً فكتب إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام: عرفني يا ابن رسول الله عن الخبر المروي: إن أبا طالب في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه. فكتب إليه الرضا عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإنك إن شككت في إيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار.

١٣) وأما عن الإمام الحسن بن علي العسكري فقد قال- كما

---

(١) المصدر ٤٠٣.

أخرجه الشيخ أبو جعفر الصدوق في حديث طويل -: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى رسوله ﷺ إني قد أيدتك بشيعتين: شيعة تنصرك سراً، وشيعة تنصرك علانية، فأما التي تنصرك سراً فسيدهم وأفضلهم عمك أبو طالب، وأما التي تنصرك علانية فسيدهم وأفضلهم ابنه علي بن أبي طالب. ثم قال: وإن أبا طالب كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه.[1]

فهذه باقة كلمات من محمد وآله الطاهرين في شأن أبي طالب وسمو مرتبته الايمانية، وكذب ما وضعه الخط الأموي على لسان رسول الله ﷺ، من أحاديث (**تكفّر**) أبا طالب، وأن من يصله البرهان والدليل في ذلك ويعاند في الرفض والتكذيب يكن مصيره النار يوم القيامة. وبعض هذه الكلمات (**فتاوى ونتيجة**) وبعضها الآخر فيها (**الاستدلال والبرهنة**).

والقائل لهذه الكلمات، هم أعرف الناس به وبمعتقده، ولا يتصور فيهم المجاملة لأبي طالب، ولا الكذب -حاشاهم- وهم المعصومون عند الامامية بعد النبي الصادق، بينما في الطرف الآخر كلام (**الناس**) وهو كما ذكرنا تعبير عن الاتجاه الرسمي للسلطة الأموية أو العباسية، ومن الطبيعي أن هؤلاء-الناس-الذين يقتاتون على فتات عطايا الخلفاء والحكام ويقدمون الدنيا على الدين سيتحرون مواقع رضا أولئك الحكام حتى لو كان ذلك

(١) المصدر ٤٠٤.

بلعن المرسلين والصديقين(١).

وأما الوسيلة الثالثة: هي معرفة الشخص من خلال مواقفه وأعماله، فلا ينكر أحد حتى أشد أعداء أبي طالب وابنه عداوة، أن أبا طالب كان المحامي الأول عن النبي وعن دعوته، والمواجه لعتاة قريش ومجرميها في الدفاع عن النبي والإسلام. وإن كانوا يفسرونها بأنه بدافع الحمية العائلية أو غير ذلك! وجوابهم في ذلك فلِم لم تدفع هذه الحمية أبا لهب للدفاع عن ابن أخيه، بل ولم تدفع العباس بن عبد المطلب للدفاع بهذا النحو عن رسول الله؟!

ومتى دخلوا قلب أبي طالب ليعرفوا أنه لم يؤمن بالله وأن حمايته النبي كانت بدافع عاطفي وعائلي؟!.

وقد مر بنا في المقالات السابقة جانباً من حمايته له ودفاعه عنه وتعريض نفسه للمواجهة، ومن ثم للمحاصرة والجوع والعطش والمقاطعة حتى قضى نحبه متأثراً وهو في تلك السن بالتعب والجوع والعطش والمرض! وتحمل الحصار جوعاً وعطشاً مدة تزيد على ألف يوم من الزمان من أجل رسول الله ﷺ. هذا بالإضافة إلى أمره أبناءه بالإيمان بالنبي والكون في ركابه!.

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي؛ العقد الفريد ٤/ ١١٣ ذكر فيه أن معاوية بن أبي سفيان بينا هو جالس وعنده وجوه الناس، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا، فكان آخر كلامه أن لعن عليا؛ فأطرق الناس وتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل ما قال آنفا لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم، فاتق الله ودع عنك علياً.

حتى لقد كان في نظر قريش هو الممثل لرسول الله ﷺ، فإذا أرادوا التفاوض مع النبي جاؤوا لأبي طالب وإذا أرادوا الضغط عليه ضغطوا على أبي طالب وإذا قرروا الحصار كان هو أول المحاصرين، وإذا أراد النبي إيصال رسالة للقرشيين كان أبو طالب! كما يظهر ذلك في قصة الأرضة التي أكلت صحيفتهم.

بقي أن نشير إلى الملاحظة الأخيرة وهي أنه لا ينبغي أخذ تقييم الشخص من خلال أعدائه وأعداء أهله، وهذا هو الفخ الذي وقع فيه من وقع - بقصد أو غير قصد - فإننا نلاحظ أن الذين رووا الروايات عن رسول الله ﷺ في شأن أبي طالب عليه السلام، كانوا في الغالب في الخط الأموي أو العباسي المصارع والمناهض لأهل البيت عليهم السلام.

كذلك الذين وجهوا الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكفار السابقين أو اللاحقين إلى أنها نزلت في أبي طالب! وبالرغم من أن الكثير من علماء مدرسة الخلفاء يعتقدون بإيمان أبي طالب بل لقد ألف الكثير منهم كتباً في ذلك وأثبتوا بالأدلة إيمانه وضعف ما تمسك به أتباع الاتجاه الأموي لإثبات (**عدم إيمانه**). إلا أن هذا الاتجاه لا يزال حاضراً في الساحة الاسلامية، وتعاطف معه كل من عادى شيعة أهل البيت عليهم السلام ومنهجهم، وتراه ينشط كلما تزايد الصراع الطائفي وينفخ في هذه النار وتجد أحد انعكاساته في تجديد الكتابات في هذا المجال.

وقد ناقش هؤلاء العلماء وغيرهم ما حاول الاستدلال به

أتباع ذلك الاتجاه، ومن المناسب أن ننقل هنا ما علق به العلامة الشيخ محمد باقر المحمودي على ما جاء في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري، وهو يعتمد على الأحاديث الرائجة في أفق الاتجاه ذاك، فضلاً عن كون البلاذري ممن كان يرتع في بلاط المتوكل العباسي ومن بعده، ومن المعلوم كيف كانت عداوة المتوكل الظاهرة للإمام علي عليه السلام حتى عُدّ من النواصب عند الكثير من العلماء، ومن الطبيعي أن من يكون في بلاطه ودائرته لن يتخذ موقفاً ظاهرياً مناسباً من الإمام علي ولا من أبيه ولا من أهل بيته، وعلى أي حال فقد علق المحمودي بشكل سريع على ما جاء في ذلك الكتاب عند حديثه عن أبي طالب، ونحن ننقله بتغيير بعض الصياغة والاختصار أو التوضيح لتتمة البحث:

١) فإن البلاذري[1] بعد أن ذكر شيئا من نصرة أبي طالب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«لما حضرته الوفاة، عرض النَّبِيّ صلى الله عليه وآله وسلم عَلَيْهِ قول: لا إله إلا الله فأبى أن يقولها وقال: يا ابن أخي. إنِّي لأعلم أنك لا تَقُولُ إلا حقا، ولكني أكره مخالفة دين عبد المطلب، وأن يتحدث نساء قريش بأني جزعت عند الموت ففارقت ما كانَ عَلَيْهِ. فمات عَلى تِلْكَ الحال. وأتى عليٌّ (النبي) فأخبره بموته فقال: وارِه فقال عَلِيّ أنا أواريه وهو كافر قالَ: فمن يواريه إذا؟ فلما واراه أمَرهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم فاغتسل، وقالَ (رَسُولُ اللَّهِ) صلى الله عليه وآله وسلم حين رأى جنازته: [وصلتك رحم].

---

(١) أنساب الأشراف ٢/ ٢٤.

ويقال: إنه قيل لَهُ: يا رَسُولَ اللَّهِ استغفر لَهُ. فنزلت فِيهِ:

﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِن بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُمْ أصْحابُ الجَحِيمِ﴾».

وقد علق المحمودي على كلامه بأنه يعتمد على الروايات التي ستأتي ويأتي النقاش في أسانيدها، وبالنسبة للآية المباركة وأنها نزلت في شأن أبي طالب وأن النبي قد نهي عن الاستغفار، فإن ذلك القول معتمد على (**يقال**) وهو مما لم يعلم له مستند فلا يُعبأ به!

٢) ثم نقل البلاذري حديثا بسند ينتهي إلى الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ قالَ: دَعا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أبا طالب إلى كلمة الإخْلاصِ فِي مَرَضِهِ فَقالَ: إنِّي لأكْرَهُ أنْ تَقُولَ قُرَيْشٌ: إنِّي قُلْتُها جَزَعًا عِنْدَ المَوْتِ ورَدَدْتُها فِي صِحَّتِي. ودَعا بَنِي هاشِمٍ فَأمَرَهُمْ بِاتِّباعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ونصرته والمنع عن ضيمه فنزلت فيه: **﴿وهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ويَنْأوْنَ عَنْهُ﴾**[1] وجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَغْفِرُ لَهُ حَتّى نَزَلَتْ: **﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾** الآيتان.

وعلق عليه المحمودي بضعفه من جهات تجعل الخبر في حد ذاته-ولو لم يكن له معارض- غير صالح للحجية؛ **أولاها:** أن سعيد بن المسيب (**الراوي الأصلي للحديث**) لم يدرك القضية، فلا

---

(١) سورة الأنعام:٢٦.

بد إذن أن يكون رواها عمن أدركها، ولم يذكره في الخبر، فيحتمل أنه كان ممن يشاقق الرسول وذويه صلوات الله عليهم!.

وثانيها: أن سعيد بن المسيب عُدَّ من المنحرفين عن أمير المؤمنين علي عليه السلام على ما ذكره ابن أبي الحديد وغيره.

وثالثها: أن الزهري الذي يروي عن ابن المسيب كان من عمال بني أمية ومرتزقة مائدة أعداء أهل البيت في أيام تجبرهم ومن كان هذا حاله، كيف يوثق به ويؤخذ عنه من الرواية في حق أهل البيت ووالد أمير المؤمنين عليه السلام ؟!.

ورابعها: أنّ بكر بن الهيثم شيخ البلاذري الذي يروي عنه مجهول!!.

٣) قال البلاذري أيضاً: وحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ الواقِدِيِّ، عَنْ سُفْيانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثابِتٍ عَنْ يَحْيى بْنِ جَعْدَةَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قالَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي طالِبٍ: «**وهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ وإنْ يُهْلِكُونَ إلّا أَنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ**».

وكان تعليق المحمودي بالقول: هذا أيضاً باطل من وجوه:

الأول: أن الثابت بعدة طرق عن ابن عباس خلاف هذا، وأنّ الآية الكريمة نزلت في المشركين الذين كانوا ينهون الناس عن محمد ان يؤمنوا به، وينأون -أي ويتباعدون- عنه، كما في تفسير الطبري: ٧/ ١٠٩، والدر المنثور: ج ٣ ص ٢ و٨- ٩، وكما في تفسير

الالوسي: ٧/ ١٢٦، وتفسير القرطبي: ٦ ص ٣٨٢، وتفسير ابن كثير: ٢ ص ١٢٢، وتفسير الشوكاني: ج ٣ ص ٩١- ٩٢، كذا روى عنهم جميعا في الغدير.

الثاني: أن هذا خلاف الظاهر من سياق الآية الكريمة، إذ المستفاد منه أنهم كانوا قد جمعوا بين التباعد عن النبي وعدم الإيمان به، وبين نهي الناس عن متابعته والإيمان بما جاء به، وأين هذا من أعمال أبي طالب وأقواله؟! أليس هو أول من نبذ القرابات وما كان بينه وبين المشركين من الصلة والجوار والصداقة محاماة للنبي ونصرة له، وتحصن مع من تبعه من عشيرته واهل بيته في الشعب سنين؟!.

الثالث: من جهات بطلان الحديث أن حبيب بن أبي ثابت الواقع في سلسلة سنده، كان مدلساً بتصريح ابن حبان، وابن خزيمة في صحيحه كما في ترجمته من تهذيب التهذيب: ج ٢ ص ١٧٩.

الرابــع: أن ابن مباركهم صرح بأن الثوري- أحد رجال الحديث - كان يدلس كما في ترجمة سفيان من تهذيب التهذيب: ٤/ ١١٥. وفي ميزان الاعتدال: ١/ ٣٩٦: انه كان يكتب عن الكذابين.

الخامس: أن الواقدي عندهم ضعيف جداً، فراجع ترجمته من تهذيب التهذيب.

السادس: أن ابن سعد أيضاً غير مرضي عند سلفهم والا فما باله لم يرو ولم يأخذ منه ابن حنبل وهو معه في بغداد، وكان يأخذ

منه أجزاء الواقدي فيطالعها، ثم يردها عليه! فما بال أرباب السنن لم يرووا عنه شيئاً؟!.

٤) وكذلك قال البلاذري وحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ الواقِدِيِّ، عَنْ (**سفيان**) الثَّوْرِيِّ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيادٍ، عَنْ عَبْدِ الله بن الحرث بْنِ نَوْفَلٍ، قالَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي طالِبٍ ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِى مَن أَحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشاءُ**﴾[1].

واستمر المحمودي متتبعاً أسانيد هذا الحديث والذي بعده المعروف بحديث الضحضاح ليثبت أنها ضعيفة لوجود كذابين فيها بحسب ما نص عليه الرجاليون عندهم، فلا ينبغي الاعتماد عليها بعدما تبين ضعف أسانيدها. فراجع تفاصيل ذلك في تعليقه على كتاب أنساب الأشراف.. انتهى نقل تعليقات الشيخ المحمودي.

إذن.. هذه الروايات لا تمتلك اقتضاء الدلالة على المسألة موضوع البحث، فكيف إذا كان لها روايات معارضة ونافية لموضوعها بنحوين؟.

الأول: فمن الأحاديث والروايات عن المعصومين عليهم السلام ما تصرح فيه بكذب تلك الروايات، وأنها موضوعة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: أنها تثبت لأبي طالب منازل عالية ومراتب عظيمة على أثر إيمانه السري الذي تقتضيه طبيعة مهمته في الدفاع عن الرسالة ونبيها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) سورة القصص: ٥٦.

المصادر بعد القرآن الكريم

أكثر المصادر التي تم اعتمادها هي نسخ الكترونية على مواقع أو تطبيقات، والاعتماد الأساس كان على مكتبة أهل البيت الموقع الالكتروني https://ablibrary.net/#/

وبعض كتب مدرسة الخلفاء تم الاعتماد على تطبيق تراث تطبيق app.turath.io

◄ ابن أبي الحديد؛ شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركاه، تحقيق

◄ محمد أبو الفضل إبراهيم ١٣٧٨

◄ الأبشيهي؛ محمد بن أحمد: المستطرف في كل فن مستظرف، عالم الكتب - بيروت، ١٤١٩ هـ

◄ ابن عبد البر، يوسف النمري القرطبي: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت علي محمد، دار الجيل، بيروت١٤١٢ ابن عساكر؛ الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي: ترجمة الإمام الحسين من تاريخ مدينة دمشق تحقيق الشيخ محمد باقر

المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الاسلامية ١٤١٤

◄ ابن كثير الدمشقي إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨

◄ الأمين؛ السيد محسن: أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات–بيروت

◄ الأميني؛ عبد الحسين: إيمان أبي طالب وسيرته

◄ الأميني، عبد الحسين: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي–بيروت–١٣٩٧

◄ الأندلسي، ابن عبد ربه: العقد الفريد، دار الكتب العلمية–بيروت ١٤٠٤ هـ

◄ البغدادي ابن سعد؛ محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٠ هـ

◄ البغدادي، الشيخ عبد اللطيف: فاطمة والمفضلات من النساء

◄ البلاذري؛ أحمد بن يحيى: جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر – بيروت ١٤١٧ هـ

◄ البياضي؛ علي بن يونس النباطي: الصراط المستقيم، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية ١٣٨٤ الثعلبي أبو إسحاق أحمد بن محمد: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبي محمد بن

عاشور دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان١٤٢٢

◄ الجزري؛ ابن الأثير علي بن محمد، أسد الغابة، دار الفكر – بيروت ١٤٠٩هـ

◄ الحر العاملي؛ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث قم ١٤١٤

◄ الخزاز القمي؛ علي بن محمد:كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، تحقيق السيد عبد اللطيف الحسيني، انتشارات بيدار، قم

◄ الخوارزمي؛ الموفق بن أحمد بن محمد المكي: المناقب، مؤسسة النشر الاسلامي جماعة المدرسين قم

◄ الدِّيار بَكْري؛ حسين بن محمد: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر–بيروت

◄ الدينوري ابن قتيبة أبو حنيفة أحمد، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي عيسى البابي الحلبي وشركاه/ القاهرة ١٩٦٠

◄ الري شهري؛ محمد: ميزان الحكمة، دار الحديث ١٤١٦

◄ الزمخشري، جار الله ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، مؤسسة الأعلمي، بيروت

◄ الزيلعي؛ تخريج الأحاديث والأخبار، دار ابن خزيمة، تحقيق

عبد الله بن عبد الرحمن السعد ١٤١٤

◄ السبحاني؛ الشيخ جعفر: سيد المرسلين، نشر جماعة المدرسين، قم ١٤٢٧

◄ السهيلي؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٢ هـ

◄ آل سيف؛ فوزي: الحياة الشخصية عند أهل البيت، دار البيان العربي بيروت.

◄ آل سيف؛ فوزي: نساء حول أهل البيت، دار الصفوة بيروت ١٤١٤

◄ السيلاوي؛ الشيخ غالب: الأنوار الساطعة من الغراء الطاهرة (**خديجة بنت خويلد**)، المطبعة العلمية ١٤٢١

◄ الشافعي؛ محمد بن إدريس:كتاب الأم، دار المعرفة – بيروت ١٤١٠هـ

◄ الشاكري؛ الحاج حسين: أم المؤمنين خديجة الطاهرة

◄ الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق د. صبحي الصالح

◄ الشيباني ابن حنبل؛ أحمد بن محمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة

◄ الشيرازي؛ السيد محمد مهدي، أمهات المعصومين، قم

◄ الصالحي الشامي؛ محمد بن يوسف: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد تحقيق الشيخ عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت

◄ الصدوق؛ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه: الخصال، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم

◄ الصدوق؛ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه: الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الاسلامية–مؤسسة البعثة قم

◄ الطبراني سليمان بن أحمد اللخمي الشامي؛ المعجم الكبير، مكتبة ابن تيمية–القاهرة

◄ الطبرسي؛ تاج المواليد (**المجموعة**)، مكتب آية الله العظمى المرعشي النجفي – قم ١٤٠٦

◄ الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

◄ الطبري، محمد بن جرير دلائل الامامة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم

◄ الطوسي، شيخ الطائفة محمد بن الحسن: الأمالي، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، تحقيق مؤسسة البعثة – قم ١٤١٤

◄ الطوسي؛ الشيخ محمد بن الحسن: مصباح المتهجد مؤسسة فقه الشيعة–بيروت ١٤١١

◄ علي؛ د. جواد: المفصل في تاريخ العرب، جامعة بغداد

◄ القندوزي؛ الشيخ سليمان بن ابراهيم: ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني دار الأسوة للطباعة والنشر ١٤١٦

◄ الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، أصول الكافي، دار الكتب الإسلامية–طهران

◄ الكوفي؛ أبو القاسم: الاستغاثة، مؤسسة الأعلمي طهران

◄ المازندراني؛ المولى محمد صالح: شرح أصول الكافي، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ١٤٢١

◄ المازندراني؛ محمد بن علي بن شهراشوب: مناقب آل أبي طالب، المكتبة والمطبعة الحيدرية، النجف ١٣٧٦

◄ المجلسي؛ المولى محمد باقر: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء بيروت ١٤٠٣

◄ المفيد، الشيخ محمد بن النعمان: المسائل السروية، تحقيق صائب عبد الحميد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع–بيروت ١٤١٤–لبنان

◄ المفيد، الشيخ محمد بن النعمان: الإرشاد، دار المفيد للطباعة

والنشر والتوزيع – بيروت، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث ١٤١٤

◄ الموسوي، الشريف المرتضى الفصول المختارة، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع–بيروت – ١٤١٤ الموسوي؛ فخار بن معد: إيمان أبي طالب (**الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب**) ت

◄ السيد محمد بحر العلوم، مكتبة النهضة – بغداد ١٣٨٤

◄ النجاشي؛ أبو العباس أحمد بن علي: فهرست اسماء مصنفي الشيعة (**رجال النجاشي**)، مؤسسة النشر الإسلامي جماعة المدرسين، قم ١٤١٦

◄ النسائي؛ أحمد بن شعيب بن علي: فضائل الصحابة، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٥

◄ النمازي الشاهرودي؛ الشيخ علي: مستدرك سفينة البحار، مؤسسة النشر الإسلامي جماعة المدرسين قم ١٤١٨

◄ النيسابوري؛ أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١١

◄ اليوسفي الغروي؛ الشيخ محمد هادي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مجمع الفكر الإسلامي – قم ١٤١٧

كلمة شكر للأخوات الفاضلات اللاتي ساهمن في كتابة هذه المحاضرات؛ ليلى الشافعي، خديجة العيد، تهاني الغاوي، فاطمة الخويلدي، وغيرهن ممن لم يشأن ذكر أسمائهن وللإخوة الفضلاء ؛ أبي محمد العباد، وأبي علي عبد الأمير ـ البحرين ـ محمود المطر.

فهرس

قنوات التواصل مع الشيخ

الايميل
fawzialsaif@gmail.com

الموقع الالكتروني
www.al-saif.net

قناة اليوتيوب
https://m.youtube.com/user/Fawzialsaif

تطبيق آيفون
http://bit.ly/alsaifapp

تطبيق أندرويد
http://bit.ly/1zPHwFh

قناة التلغرام
http://bit.ly/1M8Lzhk

المجموعة الصوتية الكاملة على دروبوكس
https://goo.gl/VMmT7X

روابط المقاطع القصيرة
goo.gl/XkTvmj

قناة الساوند كلاود
https://m.soundcloud.com/fawzialsaif

تطبيق الكتب اندرويد:
https://play.google.com/store/apps/details?id=net.alsaif.books

ايفون وايباد:
https://appsto.re/us/_ptClb.i

الموقع الرديف
https://al-saif.app

الانستغرام
https://instagram.com/fawzialsaif_shortclips?igshid=195m0v23vh9mx

قناة بودكاست الشيخ فوزي آل سيف لجوالات الايفون:
https://apple.co/31oqGiO

إنهما ناصران

كانا نصيرين للنبي ﷺ حين عز النصير، ومؤمنين به حين كان الإيمان به يساوي التعرض للأذى والاضطهاد بل للموت، ونصرتهما بهذا تختلف عما صار فيما بعد من حال بعض المسلمين وهم «في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون».

جمعهما الدور الرسالي في الفترة التي تجاوزت فترة ما بعد الهجرة زمانا، وخطورة فاشتركا في تلك الفترة وأخطارها، وتأسست قواعد الدين على يدهما، بعد النبي والوصي .

خديجة بنت خويلد وأبو طالب عليهما السلام، احتضنا بذرة الرسالة في فترة البعثة واستمرا فيها مدافعين منافحين حاميين مدة عشر سنوات ـ ولذلك لا غرابة أن سُمّي العام الذي فقد فيه النبي ﷺ زوجته وعمه بعام الحزن.